# العَرَبِيّةُ وَمَكانتُها فِي عَصْرِ الإنْتِرْنِتّ

***أحمد بيضون[1]***

## *جَدِيدُ العالَمِ وَجَدِيدُ المِعْيار*

باتَ عَلَيْنا، إنْ شِئْنا أَنْ نَرُوزَ مَكانةَ لُغةٍ مِن اللُّغاتِ بَيْنَ قَرِيناتِها، فِي عالَمِ اليَوْمِ، أَنْ نَنْظُرَ، أَوَّلَ ما نَنْظُرُ، فِي مِقْدارِ تَلْبِيَةِ هَذِهِ اللُّغةِ لِدَواعِي الحُضُورِ النَوْعِيّ فِي فَضاءِ الإنْتِرْنِتّ المُتَرامِي الأَبْعادَ وَفِي قُدْرَتِها، مِنْ ثَمَّ، عَلى فَرْضِ ثِقَلٍ كَمِّيٍّ لَها عَلى الشَبَكَةِ يُتَرْجِمُ، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، نَصِيبَها الواقِعِيَّ مِنْ جُمْلَةِ البَشَرِ بَيْنَ سائرِ اللُّغاتِ التِي تَتَوَزَّعُ أَهْلَ الأَرْضِ هَؤلاء. ما عادَ يَصِحُّ اعْتِبارُ هَذا الاقْتِرانِ بَيْنَ حُضُورٍ نَوْعِيٍّ وَثِقَلٍ كَمِّيٍّ مُناسِبَيْنِ، فِي العالَمِ الافْتِراضِيّ، مُجَرَّدَ شَرْطٍ مِنْ شُرُوطٍ يَتَأَكَّدُ بِتَحَقُّقِها نَيْلُ اللُّغةِ المَنْظُورِ فِي أَمْرِها ما يُقَدَّرُ أَنَّهُ حَقُّها وَتَبَوُّؤها مَكانَتَها المُبْتَغاةَ عَلى هَرَمِ اللُّغاتِ المُدَرَّج. وَإنَّما أَمْسى هَذا الاقْتِرانُ هُوَ الشَرْطَ الذي اسْتَوَتْ سائرُ أَوْضاعِ اللُّغةِ: مِنْ مَخْزُونِ التُراثِ إلى ثَراءِ المُعْجَمِ إلى مَزايا القَواعِدِ وَالبِنى إلى وَقائعِ الجَدَلِ بَيْنَ اللغةِ المِعْيارِيّةِ وَاللَهْجاتِ فَإلى حَجْمِ البُؤَرِ البَشَرِيّةِ وَانْتِشارِها الجُغْرافِيّ، إلخ.، أَقْرَبَ إلى أَنْ تَكُونَ كُلُّها مُتَمِّماتٍ لَهُ أَوْ مُيَسِّراتٍ لِلتَوَفُّرِ عَلَيْهِ. أَمْسَتْ كُلُّها مُحِيلةً إلى شَرْطِ حُضُورِ اللُّغةِ الافْتِراضِيّ، تَؤولُ إلى تَعْزِيزِهِ أَوْ تَقْلِيصِهِ وَتَتَضافَرُ أَحْوالُها فِي رَسْمِ صُورةٍ وَتَعْيِينِ دَرَجةٍ لَه. ذاكَ تَصَدُّرٌ لِلْحُضُورِ الافْتِراضِيّ بَيْنَ مَقاييسِ مَكانةِ اللُّغةِ أَمْسى لَهُ ما يَفْرِضُهُ اليَوْمَ، وَلَكِنْ لَعَلَّ الأَهَمَّ هُوَ التَزايُدُ المُرْتَقَبُ لِوَجاهتِه في الغَدِ: فَهوَ (أَي التَزايُدُ) عَلامةُ الحِلْفِ الذي باتَ مُبْرَماً بَيْنَ الحُضُورِ الافْتِراضِيّ وَمُسْتَقْبَلِ اللُّغة.

غَيْرُ خافٍ، مِنْ بَعْدُ، أَنَّ هَذا المَوْقِعَ لِلْحُضُورِ الافْتِراضِيّ، بِما هُوَ مِقْياسٌ لِلسَوِيّةِ التِي تُقِيمُ عَلَيْها لُغةٌ مِن اللُّغاتِ فِي دُنْيا الواقِعِ وَلِكَفاءَتِها فِي أَداءِ وَظائِفِها كافّةً، إنَّما يُعَيِّنُهُ مَوْقِعُ الإنْتِرْنتّ، بِما هِيَ شَبَكَةٌ جامِعةٌ لِحَواسِيبِ العالَمِ، مِنْ تَدْبِيرِ شُؤُونِ هَذا العالَمِ وَمَنْ فِيهِ، عَلى اخْتِلافِها. وَذاكَ أَنَّ العالَمَ الافْتِراضِيَّ لَيْسَ، بِخِلافِ ما قَدْ يُوحِي اسْمُهُ، نَسِيجَ أَوْهامٍ أَوْ أَخْيِلةٍ لا قِوامَ لَها أَوْ غُلالةً أَثِيرِيّةً لا أَثَرَ لَها فِي العالَمِ الحِسّيّ وَوَقائعِهِ الثَقِيلة. وَإنَّما انْتَهَت الشَبَكاتُ الافْتِراضِيّةُ إلى الاشْتِمالِ عَلى مَقالِيدِ الاجْتِماعِ البَشَرِيّ وَشُؤُونِ العالَمِ الواقِعِيّةِ، عَلى اخْتِلافِ الأَنْواعِ وَالمَيادِينِ، بِحَيْثُ باتَ مُتَعَذِّراً تَدْبِيرُ شَيْءٍ ذِي أَهَمِّيَةٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ غَيْرِ لُجُوءٍ إلى ما تَنْطَوِي عَلَيْهِ الإنْتِرْنتّ مِنْ وَسائلَ وَمَوارِد.

## *مَسْؤولِيّةُ اللُّغة*

[1] أُسْتاذٌ مُتَقاعِدٌ فِي الجامِعةِ اللُّبْنانِيّة، مَعْهَدِ العُلومِ الاجْتِماعِيّة. باحِثٌ مُسْتَقِلٌ يَتَناوَلُ مُعْظَمَ أَعْمالِهِ المَنْشُورةِ شُؤونَ لُبْنان وَقَضايا اللُّغةِ وَالثَّقافةِ العَرَبِيَّتَيْن. عُنْوانُ مُدَوَّنَتِهِ: abeydounblog.com

وَالحالُ أَنَّ الحامِلَ أَو المَرْكَبَ لِما تَعْرِضُهُ الإنْتِرْنِتُّ عَلى اللائذِينَ بِها إنَّما هُوَ اللُغةُ أَوَّلاً. العالَمُ الافْتِراضِيُّ، وَإنْ تَعاظَمَتْ مَكانةُ الصُوَرِ وَما جَرى مَجْراها فِيهِ وَغَيَّرَت فِيهِ ما غَيَّرَتْ، يَبْقى عالَماً لُغَوِيّاً بالدَرَجةِ الأُولى، بَلْ هُوَ أَكْثَرُ تَداوُلاً لِلُّغةِ (أَو اللُغاتِ، بِالأَحْرى) وَتَعْوِيلاً عَلَيْها مِن العالَمِ الواقِعِيّ. وَهَذا إنْ كانَ يَصِحُّ النَظَرُ إلى وَقائعِ الحَياةِ البَشَرِيّةِ عَلى أَنَّها لا تَزالُ، عَلى غِرارِ ما كانَتْ عَلَيْهِ الحالُ قَبْلَ نِصْفِ قَرْنٍ مَثَلاً، مُمْكِنةَ الفَصْلِ عَن البُعْدِ الافْتِراضِيّ الذِي غَدا جُزْءاً لا يَتَجَزّأُ مِمّا كانَ يُدْعى "الواقِعَ"، بِما هُوَ (أَي الواقِعُ) فَضاءُ احْتِمالٍ وَمُمارَسةٍ وَتَغْيِيرٍ. كانَتْ هَذِهِ حالَهُ قَبْلَ الإنْتِرْنتِّ وَازْدادَتْ كَثِيراً، مَعَ الإنْتِرْنتِّ، صِحّةُ اعْتِمادِها وَصْفاً جامِعاً لَه. وَمَعَ هَذا الازْدِيادِ، ازْدادَ حُضُورُ اللُغةِ وَجاهةً وَدَوَرانُها سُرْعةً وَسَعَةَ آفاقٍ وَازْدادَتْ أَهَمِّيّةُ تَكَيُّفِها بِأَدْوارِها الجَدِيدةِ فِي قِياسِ مَكانَتِها العامّةِ وَفِي تَعْيِينِ مَكانةِ الناطِقِينَ بِها فِي العالَمِ الجَدِيدِ اسْتِطْراداً.

وَلَعَلَّ الإلْمامَ بِالبُعْدِ الكَمِّيّ لِما أَصْبَحَتْ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ شَبَكَةُ الإنْتِرْنتِّ مِنْ خَزِينٍ كَلامِيّ مُفْصِحٌ ما يَكْفِي عَنْ مِقْدارِ اسْتِيلاءِ العالَمِ الافْتِراضِيّ عَلى نِتاجِ اللُغاتِ، مِنْ جِهةٍ، وَعَنْ تَصَدُّرِ هَذا النِتاجِ المَنْشُورِ، بِما هُوَ القِوامُ الرَئِيسُ لِلْعالَمِ الافْتِراضِيّ، مِن الجِهةِ الأُخْرى. إلى شَيْءٍ مِنْ هَذا يُشِيرُ البَرِيطانِيُّ ديفيد كْرِيسْتَل (وَهوَ فِي مَوْقِعِ صَدارةٍ بَيْنَ دارِسِي اللُغةِ وَالإنْتِرْنتِّ اليَوْمَ) حِينَ يُنَوِّهُ بِكَوْنِ الخَزِينِ الكَلامِيّ لِلإنْتِرْنِتِّ، أَيْ ما تَجُوزُ تَسْمِيَتُهُ "المُدَوَّنةَ الافْتِراضِيّةَ"، قَدْ أَمْسى يَحْتَوِي مِن الكَلامِ عَلى ما يَفُوقُ ما تَحْوِيهِ مَكْتَباتُ الأَرْضِ مُجْتَمِعةً[2]. ما الذِي يُومِئُ إلَيْهِ الحَجْمُ المَهُولُ لِهَذا الخَزِينِ، وَهوَ يَبْلُغُ هَذا المِقْدارَ لِلْمَرّةِ الأُولى في تارِيخِ البَشَرِيّةِ مُجْتَمِعاً في فَضاءٍ يَصِحُّ وَصْفُهُ بِالواحِدِ أَو المَفْتُوحِ، بِمَعْنى الاسْتِطاعةِ المَبْدَئِيّةِ لِمَنْ يَرْتادُهُ مِنْ أَيّةِ نُقْطةٍ فِيهِ أَنْ يَبْلُغَ أَقاصِيَ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ بُلُوغُها (أَوْ بُلُوغُ نَظائِرِها الحِسِّيّةِ، بِالأَحْرى) مُتاحاً لِمُخَيِّلةِ مَنْ سَبَقُوهُ بِجِيلٍ واحِدٍ أَو اثْنَيْنِ: كَأَنْ يَشْتَرِي، مَثَلاً، أَوْ يَسْتَعِيرَ، فِي لَحْظةٍ، كِتاباً مِنْ قارّةٍ أُخْرى فَيَجِدَهُ قَدْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ، بِلا إبْطاءٍ، وَهوَ لَمْ يُغادِرْ مَقْعَدَه؟! هُوَ (أَي الحَجْمُ) يَشِي بِضَخامةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَها نَظِيرٌ لِلْمَوارِدِ المُتاحةِ فِي هَذا الفَضاءِ الافْتِراضِيّ وَتَقَعُ مُهِمّةُ تَدْبِيرِها وَاسْتِيعابِها عَلى كَواهِلِ لُغاتٍ وُجِدَتْ فِي عَوالِمَ سابِقةٍ لِهَذا العالَمِ الجَدِيدِ، المُتَغَيِّرِ، إلى جِدَّتِهِ، بِسُرْعةٍ غَيْرِ مَعْهُودةٍ، هِيَ أَيْضاً. فَلا غَرْوَ، مِنْ جِهةٍ أُولى، أَنْ تُمْتَحَنَ قُدْرةُ كُلِّ لُغةٍ عَلى التَكَيُّفِ بِمُقْتَضَياتِ الإبْحارِ فِي هَذا الفَضاءِ وَأَنْ تَتَعَيَّنَ مَكانَتُها بَيْنَ اللُغاتِ بِكَفاءَتِها لِهَذا الإبْحارِ أَوَّلاً وَبِقُدْرَتِها عَلى مُواكَبةِ رَكْبِ "الواقِعِ" فِي تَكْوِينِهِ الجَدِيد. وَلا غَرْوَ، مِن الجِهةِ الأُخْرى، أَنْ تَرْزَحَ المَسِيرةُ الافْتِراضِيّةُ عَلى مَوارِدِ اللُغةِ وَبِناها فَتُغَيِّرَ وَتُبَدِّلَ فِي هَذِهِ وَتِلْكَ وَتَزِيدَ وَتُنْقِص. يُسْفِرُ ذَلِكَ، تَبَعاً لِلْحالات، عَمّا يُعَدُّ اسْتِجابةً، فِي جانِبِ اللُغةِ، أَوْ عَمّا يُعَدُّ قُصُوراً. وَيُشْتَكى، فِي مَوْضِعٍ، مِنْ تَشَوُّهٍ يُفْرَضُ عَلى اللُغةِ وَيَسُودُ الرِضا، فِي مَوْضِعٍ، عَنْ نُمُوٍّ يَحْصُلُ فِي مَوارِدِها أَوْ لُيُونَةٍ تُسَجَّلُ فِي بَعْضِ بِناها، إلخ.

***وَجْهان***

[2] Crystal, David, « The Internet: Changing the Language » in *Change, 19 key essays on how Internet is changing our lives*, OpenMind, BBVA, May 10, 2015, p. 336.

يَبْقى، مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَنَّ ما أَشَرْنا إلَيْهِ مِنْ تَضافُرٍ لِأَوْضاعِ اللُّغةِ الأُخْرى فِي تَعْيينِ نَصيبِها مِنْ هَذا الفَضاءِ الجَديدِ وَكَفاءَتِها لِارْتِيادِه يُوجِبُ أَلّا تَتَراخى عِنايةُ أَهْلِ اللُّغةِ بِالمَسائلِ التَقْلِيدِيّةِ المَطْرُوحةِ عَلَيْها بِذَريعةِ صَرْفِ الجُهْدِ إلى تَدْبيرِ ما يَتَعَلَّقُ ببُعْدِها الافْتِراضِيّ. فَإنَّ هَذَيْنِ الصَفَّيْنِ مِن المَسائلِ مُتَداخِلانِ مُتَفاعِلان. وَإنَّما نُرِيدُ، فِي هَذِهِ المَقالةِ، أَنْ نُغَلِّبَ النَظَرَ مِن الجِهةِ الافْتِراضِيّةِ فَنُرَكِّزَ انْتِباهَنا عَلى ما يُخَلِّفُهُ مِنْ آثارٍ في أَحْوالِ العَرَبِيّةِ انْخِراطُها الفِعْليُّ فِي فَضاءِ الإنْتَرْنِتِّ، وَقَدْ مَضى عَلى اكْتِسابِهِ فاعِليّةً يُعْتَدُّ بِها نَحْوٌ مِنْ ثَلاثةِ عُقُود. نُغَلِّبُ هَذا الجانِبَ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ إهْمالٍ (لا تُبِيحُهُ سَلامةُ المُعالَجةِ، فِي كُلِّ حالٍ) لِلْجانِبِ الآخَرِ، وَهوَ جانِبُ الأَهْلِيّةِ المُثْبَتةِ مِنْ جانِبِ العَرَبِيّةِ وَأَهْلِها، بِنىً لُغَوِيّةً وَاسْتِعْداداً حَضارِيّاً، لِمُواجَهةِ المُقْتَضَياتِ المُخْتَلِفةِ لِتَعْزِيزِ حُضُورِ اللُّغةِ فِي العالَمِ الافْتِراضِيّ وَتَوْطِيدِ مَكانَتِها العامّةِ، بِالتالِي.

## *وَقائعُ كَمّيّة...*

لا بُدَّ، فِي هَذا المَساقِ، مِن اسْتِذْكارِ مُعْطَياتٍ كَمِيّةٍ بِعَيْنِها هِيَ المَدْخَلُ إلى تَعْيينِ المَوْقِعِ الذِي تَقِفُ فِيهِ العَرَبِيّةُ واقِعاً مِن العالَمِ الافْتِراضِيّ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَوْقِعَ w3techs.com يُسَجِّلُ أَنَّ العَرَبِيّةَ هِيَ (فِي أَوَّلِ آب ٢٠٢٣) لُغةُ 0.7% مِن المَواقِعِ المَعْرُوفةِ اللُّغةِ عَلى الشَبَكة. وَهَذِهِ نِسْبةٌ تُنْبِئُ بتَراجُعٍ عَمّا كانَتْ عَلَيْهِ الحالُ قَبْلَ عامٍ واحدٍ بِالضَبْطِ إذْ كانَ نَصِيبُ العَرَبِيّةِ حِينَذاكَ 1.1% . هَذا إلى كَوْنِ النِسْبَتَيْنِ كِلْتَيْهِما تَظَلّانِ أَدْنى بِكَثِيرٍ مِنْ نِسْبةِ الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ إلى جُمْلةِ سُكّانِ المَعْمُورةِ وَهَذِهِ أَدْنى بِقَلِيلٍ مِنْ 5 % . وَتَزْدادُ هَذِهِ النِسَبُ دَلالةً حِينَ نَعْلَمُ أَنَّ لُغةَ الإنتَرْنتِّ الأُولى، وَهِيَ الإنْكلِيزِيّةُ، تَسْتَحْوِذُ وَحْدَها عَلى 53.9% مِنْ جُمْلةِ المَواقِعِ المُشارِ إلَيْها.[3] وَهَذا فِيما تُفِيدُ المُعْطَياتُ المُتاحةُ أَنَّ الكُتْلةَ البَشَرِيّةَ الناطِقةَ بِالإنْكلِيزِيّةِ *أَصْلاً* يَفُوقُ حَجْمُها حَجْمَ تِلْكَ الناطِقةِ بِالعَرَبِيّةِ بِما لا يَزِيدُ عَن الثُلُثِ إلَّا قَلِيلاً (372.9 مِلْيُوناً لِلْأُولى يُقابِلُها 274 مِلْيُوناً لِلثانِية . هَذا مَعَ العِلْمِ بِفارِقٍ جَسِيمِ الوَقْعِ عَلى المُعْطَياتِ المُشارِ إلَيْها تَوّاً، وَهوَ أَنَّ الكُتْلةَ الناطِقةَ بِالإنْكلِيزِيَّةِ يُضْرَبُ حَجْمُها وَنِسْبَتُها مِنْ سُكّانِ المَعْمُورةِ بِـ3,8 تَقْرِيباً إذا نَحْنُ احْتَسَبْنا فِيها مَنْ يَتَعَلَّمُونَ الإنْكلِيزِيّةَ وَيَعْتَمِدُونَها بَعْدَما يَكُونُونَ وُلِدُوا فِي وَسَطٍ لُغَوِيٍّ مُغايِر. هَذا امْتِيازٌ ضَخْمٌ لَيْسَ فِي جُعْبةِ العَرَبِيّةِ (وَلا غَيْرِها مِن اللُّغاتِ الكُبْرى) ما يُناظِرُه .[4]

إلى هَذا، لا يُوحِي بِتَحَسُّنٍ لِمَوْقِعِ العَرَبِيّةِ مِن الإنْتَرْنِتِّ، فِي نِهايةِ المَطافِ، ما تُظْهِرُهُ الإحْصاءاتُ مِنْ زِيادةٍ مُطَّرِدةٍ فِي نِسْبةِ المُتَّصِلِينَ بِالإنْتَرْنِتِّ مِن الناطِقِينَ بِها. فَإنّ نِسْبةَ اتِّصالِ الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ بِالإنْتَرْنِتِّ كانَت 53% في آخِرِ آذار 2020 فِيما كانَت النِسْبةُ نفْسُها مِن الناطِقِينَ

---

[3] « Historical trends in the usage statistics of content languages for websites », *w3techs.com*, Technologies>Content Languages>Historical Trend>Monthly.

عَلى أنَّ هَذِهِ التَقْدِيراتِ لَيْسَتْ مَحَلَّ إجْماع. را. مَثَلاً وِجْهةَ نَظَرٍ (فَرَنْسِيّةً) فِي نَصِيبِ الإنْكلِيزِيّةِ مِنْ مُحْتَوى الإنْتَرْنِتِّ تُفِيدُ أَنَّهُ إلى تَراجُعٍ مُتَواصِلٍ وَأَنَّهُ كانَ (وَفْقاً لِإفادةِ Internet World Stats) قَدْ بَلَغَ مَشارِفَ الـ25% في سَنَةِ 2011! (26.8 % يُقابِلُها 3.3% لِلْعَرَبِيّةِ و 3% لِلْفَرَنْسِيّةِ). وَهَذا مِثالٌ لِما يَطْبَعُ الأَرْقامَ مِن اخْتِلافٍ وَتَرَدُّدٍ في هَذا المِضْمارِ يَتَسَبَّبُ بِهِما تَبايُنٌ في المُقارَبةِ، عَلى الأَرْجَح...

Oustinoff, Michaël, "Les langues sur Internet : de l'hégémonie de l'anglais au règne de la traduction », *Le Temps des Médias,* 2012/1, no 18, pp. 124-135.

[4] *Ethnologue*, 25th edition, 2022.

بِالإنْكلِيزِيّةِ في التاريخِ نَفْسِهِ 77.5%، وَهَذا فارِقٌ أدْنى نِسْبِيّاً بِكَثِيرٍ مِنْ ذاكَ الفاصِلِ ما بَيْنَ نَصِيبِ كُلٍّ مِن اللُّغَتَينِ وَنَصِيبِ الأُخْرى مِن المَواقِعِ. وَلا يَقِلُّ دَلالَةً عَنْ هَذا التَفاوُتِ كَوْنُ المُتَّصِلِينَ بِالإنْتِرْنِتِّ مِن الناطِقِينَ بِالإنْكلِيزِيّةِ قَدْ نَمَت كُتْلَتُهُم ما بَيْنَ عامِ 2000 وعامِ 2021 بِما مِقْدارُهُ 742.9% فِيما نَمَت الكُتْلَةُ نَفْسُها، فِي جِهةِ العَرَبِيّةِ، بِما مِقدارُهُ 9348 % أَيْ بِما يَبْلُغُ 12 مِثْلاً تَقْرِيباً لِزِيادةِ الكُتْلةِ الناطِقةِ بِالإنْكلِيزِيّة. وَهَذا تَفاوُتٌ يَشِي، بِلا رَيْبٍ، بِدَرَجَتَي إشْباعٍ مُتَفاوِتَتَيْنِ جِدّاً عِنْدَ المُنْطَلَقِ فَضْلاً عَنْ إيمائِهِ إلى إقْبالٍ عَرَبِيّ عارِمٍ عَلى اللِحاقِ بِالرَكْب.[5] يَتَبَيَّنُ هَذا مِن اقْتِرانِ التَفاوُتِ بَيْنَ نِسْبَتَي النُمُوِّ لِصالِحِ الجِهةِ العَرَبِيّةِ بِاسْتِمرارِ التَفاوُتِ الواضِحِ بَيْنَ نِسْبَتَيِ الاتِّصالِ بِالإنْتِرْنِتِّ، فِي نِهايةِ المَرْحَلةِ المُعْتَمَدةِ لِلْقِياسِ، وَهَذا لِصالِحِ الجِهةِ الإنْكلِيزِيّة. يَبْقى أَنَّ أَهَمَّ ما فِي المُقارَنةِ كُلِّها أَنَّ النُمُوَّ السَرِيعَ لِكُتْلةِ المُتَّصِلِينَ بِالشَبَكةِ مِن الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ لم يُسْفِرْ عَنْ مُعالَجةٍ لِهامِشِيّةِ المُحْتَوى العَرَبِيّ في الشَبَكةِ، إنْ نَحْنُ اعْتَمَدْنا مُؤَشِّراً لِتَقْدِيرِ حَجْمِ هَذا المُحْتَوى نِسْبةَ المَواقِعِ العَرَبِيّةِ إلى تِلْكَ المَعْلُومةِ اللُّغاتِ كافّةً. فَيَنْتَهِي بِنا هَذا التَبايُنُ الفادِحُ ما بَيْنَ نِسْبةِ الكُتْلةِ العَرَبِيّةِ اللِسانِ، المُتَّصِلةِ بِالإنْتِرْنِتِّ، وَنِسْبةِ المُحْتَوى المُنْتَجِ بِالعَرَبِيّةِ إلى تَقْدِيرٍ مُفادُه أَنَّ مُعْظَمَ ما يَفْعَلُهُ الناطِقُونَ بِالعَرَبِيّةِ، مُنْتِجِينَ وَمُتَلَقِّينَ، فِي الفَضاءِ الافْتِراضِيّ، إنَّما يَتَّخِذُونَ مَرْكَباً إلَيْهِ لُغةً غَيْرَ لُغَتِهِم. هَذِهِ اللُّغةُ ذاتُ الأَفْضَلِيّةِ هِيَ الإنْكلِيزِيّةُ أَوَّلاً، بِلا أَدْنى رَيْبٍ، تُؤازِرُها أُخْرَياتٌ ضَئِيلاتُ الأَنْصِبةِ نِسْبِيّاً...

***... وَعَواقِبُ نَوْعِيّة***

ما الذِي يَؤولُ إلَيْهِ هَذا الضُمُورُ الكَمِّيُّ لِلْمُحْتَوى العَرَبِيّ فِي الشَبَكةِ بِالقِياسِ إلى ما تُحِيزُ الكُتْلةُ العَرَبِيّةُ مِن المُتَّصِلِينَ بِالإنْتِرْنتِّ اعْتِبارَهُ نَصِيباً مُناسِباً لِلْمُحْتَوى المَذْكُور؟ *أُولى* العَواقِبِ تَوْجِيهُ مُسْتَشِيرِي الإنْتِرْنتِّ مِن الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ نَحْوَ مَواقِعَ ناطِقةٍ بِلُغاتٍ أُخْرى يُحْسِنُونَها (وَفِي صَدارَتِها الإنْكلِيزِيّةُ) سَدّاً لِحاجَتِهِم مِن المَعْلُوماتِ، عَلى اخْتِلافِها، وَهَذا لِاعْتِيادِهِم، فِي المَواقِعِ الأَجْنَبِيّةِ تِلْكَ، وَفْرةً مَشْفُوعةً بِالجَوْدةِ المَأْمُولةِ لِما يَطْلُبُونَهُ مِن الاسْتِشارة. وَهوَ ما يُورِثُ ضَآلَةً نِسْبِيّةً فِي تَداوُلِ المُحْتَوى العَرَبِيّ تُضاعِفُ ضَآلَتَهُ الكَمِّيّةَ وَلا تَنِي تَتَفاقَمُ بِدافِعٍ مِن التَعَوُّد. وَلا يَسْتَنْفِدُ المَنْحى الكَمِّيُّ هَذا ما يَشْهَدُهُ المُحْتَوى العَرَبِيُّ مِنْ تَحَوُّلٍ مُطَّرِدٍ وَلا يُحِيطُ وَحْدَهُ بِالوِجْهَةِ التِي يَنْحُو إلَيْها طالِبُو هَذا المُحْتَوى (وَمُنْتِجُوهُ) المُفْتَرَضُون. فَإنَّ ضَآلَةَ المُحْتَوى، بِما تَدْفَعُ إلَيْهِ مِن ضَآلَةٍ لِتَداوُلِهِ، تَنْحُو، عَلى صَعِيدِ النَوْعِيّةِ، نَحْوَ الاقْتِرانِ بِضَحالَتِه.

وَذاكَ أَنَّ التَراجُعَ فِي اسْتِشارةِ المُحْتَوى يُورِثُ (وَهَذِهِ *ثانيةُ* العَواقِبِ) مَيْلاً مُتَزايِداً مِنْ جانِبِ النُخَبِ المُؤَهَّلةِ، وَإنْ تَكُنْ ناطِقةً بِالعَرَبِيّةِ أَصْلاً، إلى اعْتِمادِ لُغةٍ أُخْرى، رائجةٍ، مَرْكَباً لِأَفْضَلِ ما تَسْتَطِيعُ إنْتاجَهُ، وَذَلِكَ طَلَباً لِإدْراجِ إنْتاجِها فِي بِيئةٍ تَراها خَلِيقةً بِالمُسْتَوى الذِي تُخَمِّنُهُ لَهُ وَالْتِماساً لِتَداوُلٍ أَرْفَعَ وَتِيرةً وَأَرْحَبَ آفاقاً لِإنْتاجِها ذاكَ. وَقَدْ يَكْفِي دَلالةً عَلى هَذا المَنْحى (وَتَعْزِيزاً لَهُ أَيْضاً) اتِّخاذُ جانِبٍ مِنْ مَراكِزِ البَحْثِ المُتَوَطِّنةِ فِي بِلادٍ عَرَبِيّةٍ (بَلْ وَالمُخْتَصّةِ بِشُؤُونِها أَيْضاً) لُغةً غَيْرَ العَرَبِيّةِ تُنْتِجُ بِها الأَبْحاثَ وَتَنْشُرُها. وَهوَ ما يَسْتَجِيبُ لَهُ المُنْتِجُونَ، ما لَمْ تُعارِضْهُ سِياسةٌ

[5] « Internet World Users by Language, Top 10 Languages », *Internet World Stats, Usage and Population Statistics*.

مُؤَسَّسِيّةٌ أَو اخْتِيارٌ شَخْصِيٌّ، يَحْفِزُهُم – قَبْلَ سِياسةِ المَراكِزِ – تَكْوِينُهُم المَعْرِفِيُّ، أَيْ لُغةُ دِراسَتِهِم، عَلى الخُصُوصِ، بِما هِيَ أَيْضاً حامِلٌ مُرَجَّحٌ لِمُحْتَوىً مَرْجِعِيٍّ مُتَفَوِّقٍ فِي مَجالِ بَحْثِهِم. فِي هَذا كُلِّهِ مِصْداقٌ لِقَوْلِ الإنْجِيلِ: "إنَّ مَنْ لَهُ يُعْطى وَيُزادُ وَأَمّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَالذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْه!" أَوْ أَيْضاً لِلْمَأْثُورِ الدارِجِ: "إنَّ المالَ يَجُرُّ المالَ وَالقَمْلَ يَجُرُّ الصِيبان!" ...

## *ضَخامةُ الكَنْزِ وَضَآلةُ رَأْسِ المالِ!*

يُورِثُ هَذا التَقَهْقُرُ فَقْراً مَحْسُوساً فِي مُحْتَوى العَرَبِيّةِ، سَوِيّةً وَحَجْماً، وَفِي مَكانَتِها الاعْتِبارِيّةِ، بِالتالِي، مَرَدُّهُ إلى صِناعةِ الحاضِرِ وَالمُسْتَقْبَلِ بِلُغاتٍ أُخْرى وَإحْجامِ العَرَبِيّةِ النِسْبِيّ (وَالفادِحِ مَعَ ذَلِكَ) أَوْ تَقْصيرِ أَهْلِها بِالأَحْرى، عَنْ بَذْلِ ما يَكْفِي مِنْ جُهودٍ لِاسْتِيعابِ ما يُصْنَعُ وَلِلْإسْهامِ بِنَصِيبٍ يُعْتَدُّ بِهِ فِي الصِناعةِ نَفْسِها. وَلا يَنْفَعُ فِي مُداراةِ هَذا القُصُورِ الواقِعِيِّ التَنْوِيهُ المُكَرَّرُ بِما هِيَ عَلَيْهِ تَرِكةُ المَعاجِمِ العَرَبِيّةِ مِنْ ضَخامةٍ مُؤَكَّدةٍ وَبِما هُوَ عَلَيْهِ نِظامُ الاشْتِقاقِ العَرَبِيّ مِنْ خُصُوبةٍ بالِغةٍ، إلخ. فَهَذا وَما جَرى مَجْراهُ حُكْمُهُ حُكْمُ الكَنْزِ الذِي لا يُفْلِحُ أَصْحابُهُ فِي تَطْوِيعِهِ لِحاجاتِهِم الراهِنةِ وَلا فِي تَحْوِيلِهِ إلى رَأْسِ مالٍ يَسْتَثْمِرُونَهُ فِي تَكْيِيفِ مُسْتَقْبَلِهِم بِمَطالِبِ التارِيخِ وَفِي ضَمانِ مَوْقِعِ فِعْلٍ لَهُم فِي مَجْرى هَذا الأَخِيرِ يُجَنِّبُهُم التَخَبُّطَ المُتَمادِي فِي مَواقِعِ التَلَقِّي وَهَوامِشِ التارِيخ.

حَتّى إذا أَخَذْنا عِلْماً بِهَذِهِ السِماتِ العامّةِ لِمَوْقِعِ العَرَبِيّةِ مِن العَصْرِ الافْتِراضِيِّ وَخَوْضِها فِيهِ، وَهِيَ سِماتٌ أُصُولُها حَضارِيّةٌ، مِنْ حَيْثُ الأَساسُ، أَي اجْتِماعِيّةٌ سِياسِيّةٌ ذاتُ مَدىً تارِيخِيٍّ، كانَ لِذَلِكَ وَقْعُهُ عَلى مُهِمّةِ المُسْتَطْلِعِ لِهَذا المَوْقِعِ وَلِمُسْتَقْبَلِهِ حَتْماً. فَلا يَسْتَقِيمُ البَحْثُ عَن الأُصُولِ المُشارِ إلَيْها فِي نِطاقِ اللُغةِ نَفْسِها وَفِي حُدُودِ مَنْطِقِها الداخِلِيِّ إلَّا بِمِقْدارِ ما يَحْتاجُ إلَيْهِ ضَبْطُ البَحْثِ التارِيخِيِّ أَو الحَضارِيِّ (وَهوَ الذِي يُعَوَّلُ عَلَيْهِ هاهُنا) بِمَدارِ التَفاعُلِ ما بَيْنَ اللُغةِ وَما يَتَعَدّاها. بِهَذِهِ المَثابةِ أَيْضاً يَخْرُجُ البَحْثُ المُباشِرُ فِي تِلْكَ الأُصُولِ مِنْ نِطاقِ هَذِهِ المَقالةِ وَيَفِيضُ كَثِيراً عَنْ مَدارِها المَحْصُورِ فِي وَقائعِ اسْتِجابةِ العَرَبِيّةِ لِدَواعِي العَصْرِ الافْتِراضِيِّ وَفِي وَقْعِ هَذِهِ الدَواعِي عَلى العَرَبِيّةِ مُعْجَماً وَقَواعِدَ وَتَقالِيدَ اسْتِعْمالِيّة...[6]

## *حُدُودٌ لِلْمُهِمَّةِ وَالمُقارَبة...*

لا نُعْنى هاهُنا أَيْضاً بِما يُورِثُهُ مِنْ أَثَرٍ أَوْ آثارٍ تَعْدِيلُ المِيزانِ بَيْنَ الصُورةِ وَالكَلِمةِ فِي مُحْتَوى الإنْتَرْنِتِّ وَعِنايةِ زُوّارِها، وَهَذا لِمَصْلَحةِ الصُورةِ وَطُغْيانِها فِي المُحْتَوى[7] وَفِي الأَكْثَرِ رَواجاً مِنْ بَيْنِ حَوامِلِهِ البَرْمَجِيّة وَمَواقِعِه. وَلا يَتَّسِعُ المَجالُ هُنا أَيْضاً لِلدُخُولِ فِي تَحْلِيلٍ مُنْفَصِلٍ أَوْ مُقارَنٍ لِلْعَلاقةِ بَيْنَ العَرَبِيّةِ وَ"أَنْواعِ" الإنْتَرْنِتِّ أَوْ فُرُوعِها التِي يَحْصُرُها كْرِيسْتَل فِي سِتّةٍ هِيَ: البَرِيدُ الإلِكْتُرُونِيُّ، مَجامِيعُ الدَرْدَشةِ، العَوالِمُ الافْتِراضِيّةُ، صَفَحاتُ الشَبَكةِ العالَمِيّةِ www

---

[6] فِي الأُصُولِ الفائضةِ عَنْ حُدُودِ اللُغةِ لِتَعَثُّرِ الفُصْحى فِي تَعامُلِها وَوَقائعِ الحَضارةِ الحَدِيثةِ وَقامُوسِها، را. "العَرَبِيّةُ وَعالَمِيّةُ الإبْداع: مِن اللُغةِ الكِنايةِ إلى إسْتِراتِيجِيّةِ المُجانَبة" (1993) فِي: بَيْضُون أَحْمَد، *كَلِمُن: مِنْ مُفْرَداتِ اللُغةِ إلى مُرَكَّباتِ الثَقافة*، دارُ الجَدِيد، بَيْرُوت، 1997، ص. 97-113.

[7] فِي مَوْضُوعِ الصُوَر وَالكَلامِ، را. مَثَلاً: Joly, Martine et Martin, Jessie, *Introduction à l'analyse de l'image,* Armand Colin, Paris, 2022, chap. 4, pp. 121-154.

وَمَواقِعُها، المُدَوَّناتُ، الرَسائلُ الفَوْرِيّةُ.[8] وَقَد انْضَمَّ إلَيْها، بَعْدَ صُدُورِ الكِتابِ، سابِعٌ مُتَرامِي الأطْرافِ، مَلأَ الدُنْيا وَشَغَلَ الناسَ، هُوَ فَرْعُ " شَبَكَاتِ التَواصُلِ" أَو "الشَبَكاتِ الاجْتِماعِيّة". لا جَرَمَ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الفُرُوعِ مَسْلَكٌ فِي مُعاطاتِهِ اللُغةَ لَهُ خَصائصُ يُفْتَرَضُ أَنْ تَسْتَجِيبَ لَها اللُغةُ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ طابَعٌ يَدْمَغُ بِهِ اللُغةَ أَيْضاً، عَلى اخْتِلافِ البِنى المَعْهُودةِ لَها (مِنْ مُعْجَمِيّةٍ وَصَوْتِيّةٍ وَنَحْوِيّةٍ وَدَلالِيّةٍ...) وَهوَ ما يُفَصِّلُهُ كْرِيسْتَلْ في حالةِ اللُغَةِ الإنْكلِيزِيّةِ، وَقَدْ أَخَذْنا بطَرَفٍ مِنْهُ فِي عَمَلٍ آخَرَ (تَناوَلَ العَرَبِيّةَ في شَبَكَةِ فيسبوك) وَلا نَعُودُ إلَيْهِ هُنا.[9]

نَدَعُ جانِباً، أَخِيراً، تَحَوُّلَيْنِ لَمْ يَزالا جارِيَيْنِ وَلَمْ تَتَبَيَّنْ حَتّى الآنِ تَبِعاتُهُما اللُغَويّةُ وَإنْ يَكُنْ مُرْتَقَباً أَنْ تَكُونَ جَلِيلة. *الأَوَّلُ* مِنْهُما ما هُوَ مُرْتَقَبٌ مِنْ تَحَسُّنٍ فِي التَرْجَمةِ الآلِيّة. فَهَذِهِ لا تَزالُ هَفَواتُها مَنْجَمَ تَنَدُّرٍ وَعامِلَ لَجْمٍ لِإغْراءِ الرُكُونِ إلَيْها[10]. وَلَكِنَّ تَحَسُّنَها مَلْحُوظٌ مِنْ سَنةٍ إلى تالِيَتِها. وَهيَ، إذا بَلَغَت ما يُرادُ لَها مِنْ كَفاءةٍ، خَلِيقةٌ بِتَغْيِيرٍ يَلُوحُ عَمِيقاً لِلْعَلاقةِ بَيْنَ لُغاتِ الإنْتِرْنتِ – وَمِنْها العَرَبِيّةُ بطَبِيعةِ الحالِ – وَهَذا لِجِهةِ الشُعُورِ بِالعَوازِلِ بَيْنَها وَصِلاتِ الناطِقِينَ بِكُلٍّ مِنْها بِلُغَتِهِم وَبِتُراثِها. هَذا أَيْضاً لِتَعَرُّضِ اللُغةِ فِي كُلِّ لَحْظةٍ لِامْتِحانِ التَرْجَمةِ المُنْتَشِرِ المَواقِعَ عَنْ مائةِ لُغَةٍ وَلُغةٍ وَأَثَرِهِ فِي الشُعُورِ وَالصِلاتِ المُشارِ إلَيْها وَفِي اللُغةِ نَفْسِها. هَذا أَخِيراً لِجِهَةِ الاضْطِرابِ فِي تَوْزِيعِ الإنْتِرْنتِ أَنْصِبَةً أَوْ قَطائعَ لُغَوِيّةً، وَهوَ ما لا يَنْفَكُّ جارِياً. لا يَزالُ هَذا كُلُّهُ، إلى حَدِّ ما، فِي طَيِّ الغَيْبِ فَيَطُولُ حَدِيثُهُ وَلا تَنْجَلِي مَلامِحُه. الأَمْرُ *الثانـي* ما يُسَجَّلُ مِنْ صُعُودِ الصَوْتِ (بَعْدَ صُعُودِ الصُورةِ) بِما هُوَ حامِلٌ أَوْ صيغةٌ لِمُحْتَوى الإنْتِرْنِت. وَالظاهِرةُ تَنْتَشِرُ: مِنْ غَلَبةِ الرَسائلِ الفَوْرِيّةِ المَسْمُوعةِ إلى نُمُوِّ القِطاعِ المَسْمُوعِ فِي نَشْرِ الكُتُبِ إلى الاسْتِعاضةِ عَنْ قِراءةِ الصُحُفِ بِالاسْتِماعِ إلى مَوادِّها، إلخ. يُزَكِّي هَذا التَوَجُّهُ أَيْضاً تَعَدُّدَ الوَسائطِ وَتَداخُلَها فِي المادّةِ الواحِدة. واضِحٌ، أَخِيراً لا آخِراً، أَنَّهُ يُعَزِّزُ نَصِيبَ المُشافَهةِ مِن المُحْتَوى الافْتِراضِيِّ وَمَعَهُ، عَلى الأَرْجَحِ، مَوْقِعُ المَحْكِيّاتِ فِي تَزاحُمِها وَلُغاتِ الكِتابةِ، وَلَو انَّ النُصُوصَ المَتْلُوّةَ يَسَعُها، فِي حالةِ العَرَبِيّةِ، بِخاصّةٍ، أَنْ تُسْعِفَ فِي تَجْوِيدِ المَعْرِفةِ بِالفُصْحى أَيْضاً. هَذا وَلَنْ يَخْلُوَ المِراسُ الجَدِيدِ، عَلى الجُمْلةِ، مِنْ أَثَرٍ يُخَلِّفُهُ فِي المَحْكِيّاتِ نَفْسِها...

فَإذا كانَ ما سَبَقَ يَفِي – عَلى ما نَأْمُلُ – بِالحاجةِ الأَوَّلِيّةِ إلى تَرَسُّمِ مَوْقِعِ العَرَبِيّةِ مِمّا هِيَ مَدْعُوّةٌ إلَيْهِ فِي العَصْرِ الافْتِراضِيِّ أَيْ بِما هِيَ حامِلٌ لِلْمُحْتوى الافْتِراضِيِّ، عَلى أَنْواعِهِ، وَمَرْكَبٌ

---

[8] Crystal, David, *Language and the Internet,* 2nd edition, Cambridge University Press, 2006 (First published 2001), chap. 1.

[9] را. "العَرَبِيّةُ مُفَسْبِكةً: عامِيّاتٌ يُكْتَبُ بِها وَفُصْحى جِواريّة" فِي: بَيْضُون، أَحْمَد، *فِي صُحْبةِ العَرَبِيّةِ: مَنافِذُ إلى لُغةٍ وَأَساليب*، دارُ الجَدِيد، بَيْرُوت، 2019، ص.57-88.

[10] وَنَحْنُ نُعِدُّ هَذِهِ المَقالةَ، طَلَبْنا (بِالإنْكلِيزِيّة) إلى ChatGPT أَنْ يَنْقُلَ إلى العَرَبِيّةِ مَقْطَعاً (بِالفَرَنْسِيّة) نَسَخْناهُ لَهُ مِنْ قَصِيدةٍ مَعْرُوفةٍ لِأَبّولينير. وَكانَ مُرادَنا امْتِحانُ قُدْرَتِهِ عَلى التَنَقُّلِ السَلِسِ بَيْنَ هَذِهِ اللُغاتِ الثَلاث. فِي لَحْظةٍ، أَنْجَزَ التَرْجَمةَ، وَلَكِنْ ضَمَّنَها هَفَواتٍ مِنْ قَبِيلِ جَمْعِهِ "حُبّ" عَلى "حُبُوب" طَلَباً لِأداءِ الجَمْعِ فِي عِبارةِ "nos amours" الفَرَنْسِيّة!... وَهوَ ما لَمْ نَجِدْ لَهُ تَخْرِيجاً سِوى انْحِيازِهِ المُحْتَمَلِ إلى الجانِبِ الأوكرانِيِّ فِي الحَرْبِ الجارِية!... بَعْدَ ذَلِكَ طَلَبْنا إلَيْهِ (بِالعَرَبِيّةِ هَذِهِ المَرّة) أَنْ يُكْمِلَ تَرْجَمةَ القَصِيدةِ، وَلَمْ نَنْسَخْها لَهُ إذْ كانَ مُرادُنا أَنْ نَمْتَحِنَ قُدْرَتَهُ عَلى اسْتِرْجاعِها "عَنْ ظَهْرِ قَلْب" لِنَقْلِها إلى العَرَبِيّة: وَهوَ ما فَعَلَهُ فِي لَحْظةٍ، وَلَكِنْ مَعَ عَدَدٍ مِن "الدُرَر" جاءَتْ أَقَلَّ طَرافةً مِنْ "حُبُوبِنا"! وَالخُلاصةُ أَنَّهُ لا يَزالُ أَمامَ الآلةِ شَوْطٌ طَوِيلٌ تَقْطَعُهُ قَبْلَ أَنْ تُفْلِحَ فِي قَطْعِ أَرْزاقِ المُتَرْجِمِين. وَلَكِنَّها ماضِيَةٌ نَحْوَ هَذا الهَدَفِ بِلا تَوانٍ أَوْ تَرَدُّد... وَمِنَ الآنِ يُعْتَبَرُ جَمْعُ "حُبّ" عَلى "حُبُوب" وَالاسْتِغْناءُ عَنِ المُتَرْجِمِينَ هُنا أَوْ هُناكَ أَثَراً جانِبِيّاً هَيِّناً لِجَعْلِ أَيِّ كانَ قادِراً، مَتى شاءَ، عَلى خَرْقِ الحِجابِ الحاجِزِ بَيْنَ أَيّةِ لُغةٍ وَأَيّةِ لُغةٍ أُخْرى. وَهَذا، بِعَواقِبِهِ اللُغَوِيّةِ وَغَيْرِ اللُغَوِيّةِ، "ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَت"...

لِدَوَرانِهِ بَيْنَ المُتَّصِلِينَ بِالشَبَكَةِ، عَلى اخْتِلافِ الكُتَلِ وَالأَغْراضِ، فَإنَّهُ يَبْقى عَلَيْنا أَنْ نُلِمَّ بِالوَجْهِ الآخَرِ لِحالِ اللُغةِ فِي العَصْرِ: وَجْهِ مُعاناتِها وَقْعَ الانْدِراجِ فِي الفَضاءِ الافْتِراضِيّ. وَهَذا اندِراجٌ لَمْ تُباشِرْهُ العَرَبِيّةُ خالِصةً مِنْ كُلِّ إشْكالٍ سابِقٍ عَلَيْهِ وَإنَّما باشَرَتْهُ مُثْقَلةً بِأَسْئلةٍ عَوِيصةٍ طرَحَتْها عَلَيْها، فِي طَوْرِها المُعاصِرِ، ماجَرَياتُ العَلاقةِ بَيْنَ تَصَوُّراتِ أَهْلِها لِمِيراثِها التارِيخِيّ وَلِمَحَلِّهِ مِنْ هُوِيَّتِهِمْ وَتَصَوُّرِهِمْ لتَحَدِّياتِ حاضِرِهِمْ فِي وَجْهِهِ اللُغَوِيّ. وَهَذا مَعَ العِلْمِ أَنَّ الجَدَلَ الجارِي بَيْنَ الفُصْحى، مُقْتَرِنةً بِتُراثِها المَعْرُوفِ، وَالعامِّيّاتِ، مِنْ جِهةٍ، وَذاكَ الجارِي بَيْنَ العَرَبِيّةِ وَاللُغاتِ المُتَحَكِّمةِ بِالتَواصُلِ مَعَ العالَمِ المُعاصِرِ وَمَعارِفِهِ، مِن الجِهةِ الأُخْرى، هُما الوَجْهانِ المُتَصَدِّرانِ فِي العَلاقةِ المَذْكُورةِ وَهُما أَيْضاً أَظْهَرُ ما سَيَدُورُ عَلَيْهِ كَلامُنا أَدْناه...

***مِن "الواجِهاتِ" إلى "المُحْتَوى"***

عَلى أَنَّ بَعْضَ التَمْيِيزِ فِي ما نَقْصُدُهُ بِـ"اللُغةِ" التِي يَمْتَحِنُها انْدِراجُها فِي الشَبَكةِ وَيُخَلِّفُ فِيها آثاراً يَبْدُو مُسْتَحْسَناً ابْتِداءً. فَإنَّ لِلإنْتِرْنِتِ "لُغَتَها"، وَهَذِهِ لَها ظاهِرٌ وَباطِن. فَأَمّا باطِنُها فَيَنْتَمِي إلى لُغةِ الحَوْسَبةِ وَمِنْ ثَمَّ إلى "البَرْمَجةِ"، وَهَذِهِ أَعَمُّ مِنْهُ وَلُغَتُها لُغةٌ اصْطِلاحِيّةٌ أَصْلُها وَمَنْطِقُها رِياضِيّانِ، وَأَشْيَعُ مُصْطَلَحاتِها "الخَوارِزْمِيّاتُ" وَلا شَأْنَ بِها لِلُّغاتِ المَوْصُوفةِ بِـ"الطَبِيعِيّةِ"، وَمِنْها العَرَبِيّةُ، وَلَو أنّها قَدْ تَسْتَعِيرُ رُمُوزاً مِن عَناصِرِ هَذِهِ الأَخِيرةِ: مِنْ جَدْوَلِها الهِجائِيّ مَثَلاً. هَذِهِ "اللُغةُ" الباطِنةُ لا غَرَضَ لِبَحْثِنا هَذا فِي التَطَرُّقِ إلى أَوْضاعِها وَلا نَحْنُ مِن أَهْلِ البَحْثِ فِيها، فِي كُلِّ حال. عَلى أَنَّ الجِهةَ الظاهِرةَ مِن "اللُغةِ" المَذْكُورةِ تَنْتَمِي، مَعَ حِفْظِ صِفَتِها الاصْطِلاحِيّةِ، إلى اللُغاتِ الطَبِيعِيّةِ، بَلْ هِيَ مَوْضُوعُ تَجاذُبٍ بَيْنَ هَذِهِ الأَخِيرةِ، فَلا بُدَّ لَنا مِن الإلْمامِ بِحالِ العَرَبِيّةِ مَعَها وَمَوْقِعِها مِنْها. هَذِهِ "اللُغةُ الظاهِرةُ" هِيَ، عَلى التَخْصِيصِ، "لُغةُ الواجِهاتِ": واجِهاتِ "المَواقِعِ" أَو "الصَفَحاتِ" أَو "الحِساباتِ"... أَو "التَطْبِيقاتِ" التِي يَقْتَنِيها المُتَّصِلُونَ بِالإنْتِرْنِتِ وَيَتَّخِذُونَها وَسائلَ لِأَغْراضِهِم أَوْ يُعايِنُونَها مُسْتَشِيرِينَ أَوْ "زُوّاراً" وَحَسْب. وَهِيَ، أَي اللُغةُ، تُسَمّي "عَناصِرَ" الواجِهةِ (وَهَذِهِ قَدْ تَكُونُ مُتَحَرِّكةً تَتَشَكَّلُ فِي مَساقٍ) وَتُسَمّي "الأَفْعالَ" التِي يُحْتَمَلُ أَنْ يَحْتاجَ المُتَّصِلُ بِالإنْتِرْنِتِ إلى إتْيانِها.

تَتَّخِذُ "الواجِهاتُ" لِنَفْسِها مُصْطَلَحاً يَنْتَمِي إلى لُغةِ أَصْلٍ أَوْ مَنْشَإٍ "طَبِيعِيّةٍ" هِيَ عادةً، أَوْ بِالدَرَجةِ الأُولى، اللُغةُ الإنْكلِيزِيّة. وَيَجْهَدُ مُنْشِئُو التَطْبِيقاتِ، فِي حالاتٍ كَثِيرةٍ، لِتَرْجَمةِ واجِهاتِها إلى لُغاتٍ طَبِيعِيّةٍ أُخْرى: يَفْعَلُونَ تَيْسِيراً لِانْتِشارِها بَيْنَ الناطِقِينَ بِتِلْكَ اللُغاتِ وَهَذا مِنْ غَيْرِ إلْجاءِ هَؤلاءِ إلى اسْتِيعابِ المُصْطَلَحِ الإنْكلِيزِيّ مَثَلاً. تُصادِفُ التَرْجَمةُ العَرَبِيّةُ لِمُصْطَلَحِ الواجِهاتِ هَذا، لِجِهةِ اسْتِقْبالِها مِنْ جانِبِ الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ أَنْفُسِهِم، حُظُوظاً مُتَباينةً، وَلَو أَنَّ مَعْرِفَتَهُم بِاللُغةِ الأَصْلِيّةِ لِذاكَ المُصْطَلَحِ تَتَباينُ كَثِيراً أَيْضاً. وَلِهَذا التَبايُنِ أَسْبابٌ أَبْرَزُها أَنَّ العامِّيّاتِ العَرَبِيّةَ تَسْبُقُ التَرْجَمةَ، فِي كَثْرةٍ مِن الحالاتِ، إلى تَطْوِيعِ اللَفْظِ الأَجْنَبِيّ وَاسْتِيعابِهِ فِي مَتْنِها. وَهوَ، أَي اللَفْظُ الأَجْنَبِيُّ المُطَوَّعُ، يَغْدُو بَعْدَ ذَلِكَ عَصِيّاً عَلى الاجْتِثاثِ مِنْ مَجالِ تَداوُلِهِ العَرَبِيّ وَيَبْقى المُعادِلُ العَرَبِيّ الذي اعْتَمَدَتْهُ لَهُ الفُصْحى مُهَمَّشاً، ضامِرَ التَداوُلِ، لا يَشْفَعُ لَهُ إلّا قَلِيلاً عُلُوُّ دَرَجةِ التَوْفِيقِ فِي اخْتِيارِه... فَيَلْبَثُ السَوادُ الأَعْظَمُ مِن أَهْلِ "فيسبوك" الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ – مَثَلاً – مُثابِرِينَ عَلى القَوْلِ post وcomment و cover photo ناهِيكَ بِـ like وadd و block، إلخ:

يُدْرِجُونَ هَذِهِ الأَلْفاظَ فِي كَلامِهِم العَرَبِيّ بِلا تَرَدُّدٍ وَيَتَصَرَّفُونَ، بِحَسَبِ الحاجةِ، بِبِناها الصَوْتِيّةِ غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ كَثِيراً لِما قَدْ يَقْتَرِحُهُ عَلَيْهِم "فيسبوك" نَفْسُهُ مِن مُقابِلاتٍ عَرَبِيّةٍ لَها كُلِّها وَلِغَيْرِها مِمّا يَجْرِي مَجْراها...[11]

***الفُصْحى وَالعامّيّاتُ: مَفْهُومانِ لِلاقْتِراض***

لا تَتَجاوَزُ لُغةُ الإنْتِرْنِتِ الظاهِرةُ هَذِهِ بِضْعةَ آلافٍ مِن الأَلْفاظِ يَنْعَقِدُ نِزاعٌ، فِي مَجالِ التَداوُلِ إذَنْ، ما بَيْنَ أُصُولِها الإنْكلِيزِيّةِ (فِي الكَثْرةِ الكاثِرةِ مِن الحالاتِ) وَالمُقابِلاتِ العَرَبِيّةِ المُقْتَرَحةِ لَها أَوْ لِبَعْضِها. وَلا تَمْنَعُ اللُّغةُ المُعْتَمَدةُ لِلْواجِهةِ اعْتِمادَ العَرَبِيّةِ لِلْمُحْتَوى وَإنْ تَكُنْ تُشَجِّعُ، عَلى نَحْوٍ ما، عَلى تَوَخِّي نَوْعٍ مِن المُجانَسةِ اللُّغَوِيّةِ ما بَيْنَ المُحْتَوى وَ"البِيئةِ" المُهَيَّأةِ لِاسْتِقْبالِهِ وَعَرْضِه. وَلَكِنَّ السُلُوكَ المُتَغايِرَ لِكُلٍّ مِن العامّيّاتِ وَالفُصْحى يَطْرَحُ عَلى العَرَبِيّةِ مُشْكِلةً تَتَجاوَزُ "الواجِهاتِ" وَمُصْطَلَحَها بِكَثِيرٍ مُنْتَشِرةً إلى المُحْتَوى وَإلى دَوْرِ الإنْتِرْنِتِ فِي مُفاقَمةِ ظاهِرةٍ سابِقةٍ عَلى انْتِشارِها وَتَسَيُّدِها هِيَ ظاهِرةُ التَفاوُتِ بَيْنَ الفُصْحى وَالعامّيّاتِ فِي تَقَبُّلِ الاقْتِراضِ مِن اللُّغاتِ ذاتِ الشَوْكة. تِلْكِ هِيَ المَسْأَلةُ التي نَرى لِزاماً عَلَينا إبْرازَها فِي مَساقِ سَعْيِنا إلى الإلْمامِ بِما كانَ لِلْإنْتِرْنِتِ مِنْ وَقْعٍ عَلى مُعْجَمِ العَرَبِيّةِ مَشْفوعٍ بِامْتِحانٍ بِناها الصَرْفِيّةِ أَيْضاً وَقَواعِدِ الإعْرابِ المُعْتَمَدةِ فِي تَقْلِيدِها النَحْوِيّ. وَخُلاصةُ هَذِهِ المَسْأَلةِ أَنَّ لِلْعامّيّاتِ العَرَبِيّةِ شَهِيّةً تُوشِكُ أَنْ تَكُونَ خِلْواً مِن الضَوابِطِ لِلاقْتِراضِ مِنْ مَعاجِمِ اللُّغاتِ الأُخْرى النافِذةِ فِي دِيارِ العَرَبِيّةِ نَفْسِها. وَهِيَ تَكادُ لا تَكْتَرِثُ لِلْإلْمامِ بِأَصْلِ اللَفْظِ المُقْتَرَضِ وَأَطْوارِهِ الدَلالِيّةِ أَو الصَرْفِيّةِ وَلا بِجَذْرِهِ وَفُرُوعِهِ المُمْتَدّةِ فِي بِيئَتِهِ اللُّغَوِيّةِ الأَصْلِيّة. وَإنّما يَكْفِيها أَنْ تَسِدَّ بِهِ حاجةً مُباشِرةً إلى التَسْمِيةِ فِي مَساقٍ عارِض.

هَذا التَساهُلُ عَزّزَتْهُ الإنْتِرْنِتُ أَيَّما تَعْزِيز، إذْ تَوَسَّعَتْ كَثِيراً فِي تَحْرِيرِ العامّيّاتِ مِن دَوائِرِ المُشافَهةِ – مَجالِها الأَثِيرِ – وَالتَرْوِيجِ لِنُصُوصٍ لا تُحْصى مَكْتُوبةٍ بِهَذِهِ أَوْ تِلْكَ مِنْها يَسُودُها تَساهُلُ العامّيّاتِ المَأْثُورُ فِي الصَرْفِ وَالنَحْوِ وَالإمْلاءِ وَالاخْتِلافُ بَيْنَ عامّيّةٍ وَأُخْرى فِي هَذا كُلِّهِ أَيْضاً، فَضْلاً عَنِ التَرَدُّدِ فِي العامّيّةِ الواحِدةِ وَالاخْتِلافِ فِي المُعْجَمِ أَخِيراً لا آخِراً. هَذا فِيما لَبِثَت الفُصْحى مُتَمَسِّكةً، عَلى الإجْمالِ، بِضَوابِطِها، مُؤْثِرةً تَرْجَمةَ المُصْطَلَحِ بِلَفْظٍ مِنْها عَلى تَعْرِيبِهِ، ما أَمْكَنَ ذَلِكَ، مُخْضِعةً المُعَرَّبَ، إذا أُلْجِئَتْ إلى اعْتِمادِه، لِحَلالِها وَحَرامِها الصَرْفِيَّيْنِ، وَهَذا ما لَمْ يَحُلْ دُونَ الإخْضاعِ حائلٌ لا تَجِدُ حِيلةً فِي أَمْرِه.

بَيِّنٌ عَلى هَذا أَنَّ المُجاذَبةَ بَيْنَ العامّيّاتِ وَالفُصْحى عادَتْ فِي غَيْرِ صالِحِ الأَخِيرةِ مُذْ أَصْبَحَت الإنْتِرْنِتُ مَيْداناً أَثِيراً لِجَوْلاتِها. أَو أَنَّ هَذِهِ المُجاذَبةَ – وَهَذا هُوَ الأَصَحُّ – كانَتْ فِي غَيْرِ صالِحِ الفُصْحى قَبْلَ عَصْرِ الإنْتِرْنِتِ هَذا عَلى غِرارِ ما هِيَ حالُ التَنافُسِ دائماً تَقْرِيباً بَيْنَ مَنْ يَرْشُو الجُمْهُورَ بِالتَسْهِيلِ العاجِلِ عَلَيْهِ وَمَنْ يُظْهِرُ تَشَدُّداً فِي التَمسُّكِ بِالأُصُولِ مُعَوِّلاً عَلى الوَعْظِ بِالمَزايا الإسْتِراتِيجِيّةِ لِهَذا التَمَسُّك. عَلى أَنَّ مَدَّ الإنْتِرْنِتِ الجارِفَ عَزَّزَ كَثِيراً، مَعَ ذَلِكَ، مِنْ مَواقِعِ

[11] را. أَعْلاهُ: بَيْضون... في الحاشِيَتَيْن 6 و9. هَذا وَيُقْتَرَحُ كْرِيستَلْ لِ"لُغةِ" الإنْتِرْنِتِ اسْماً هُو Netspeak، أَيْ "لُغةُ الشَبَكة". وَيُقْتَرَحُ تَسْمِيةَ الناطِقِينَ بِها Netizens أي "مُواطِنِي الشَبَكة"! را. رَصْداً لِأَوْصافِ هَذِهِ اللُّغةِ في chap. 2 مِنْ المَصدَرِ المَذْكُورِ أَعْلاهُ، في الحاشِية 8.

العامّيّاتِ فِي المُنافَسةِ، وَهَذا، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ، بِحِرْمانِهِ الفُصْحى اسْتِئْثارَها التارِيخِيَّ بِمَجالِ المَكْتُوبِ وَهوَ، بَيْنَ ما هُوَ، مُدَوَّنةُ السُلْطانِ وَالذاكرةِ وَالهُوِيّة. لَم يَكُنْ هَذا الاسْتِئْثارُ مُطْلَقاً (وَهَذا لا يَحْتاجُ إلى فَضْلِ بَيانٍ) وَلَكِنّهُ كانَ حاصِلاً بِما يَكْفِي لِيَسْتَوي حُصْناً أَخِيراً لِلْفُصْحى (مُهِيباً جِدّاً، فِي الواقِعِ) بَعْدَ أَنْ كانَتْ قَدْ جَنَحَتْ، فِي أَوْقاتٍ مُتَقارِبةٍ، إلى الانْسِحابِ مِنْ مَجالاتِ المُشافَهَةِ المُخْتَلِفةِ أَوْ إلى التَقَهْقُرِ فِيها: يَصِحُّ ذَلِكَ مَثَلاً فِي التَدْرِيسِ وَفِي الخَطابةِ الدِينِيّةِ وَفِي التَصْرِيحِ السِياسِيِّ، إلخ.[12]

### *حُصْنُ الكِتابةِ مُخَلَّعُ الأَبْواب*

زَلْزَلَت الإِنْتِرْنِتُ حُصْنَ الفُصْحى الحَصِينَ إِذْنَ إِذْ عَرَضَت عَلى مَلَإِ المُتَّصِلِينَ بِها نُصُوصاً عامّيّةً مَكْتُوبةً لا تُحْصى جاوَرَت المَكْتُوبَ بِالفُصْحى حِيناً وَطَغَتْ عَلَيْهِ وَهَمَّشَتْهُ أَحْياناً: يَزِيدُ الطُغْيانُ أَوْ يَنْقُصُ تَبَعاً لِلسِياقِ أَوْ لِلْمَوْضُوعِ أَو النَوْعِ، إلخ. وَلا عَجَبَ أَنَّ الفُصْحى ما تَزالُ تَسْتَثْمِرُ فِي هَذا الصِراعِ أَوْراقاً بَقِيَتْ فِي يَدِها وَوُجُوهَ ضَعْفٍ تُبْدِيها العامّيّاتُ فِي المُنافَسة: فالفُصْحى واحِدةٌ، عَلى الإِجْمالِ، فِيما العامّيّاتُ مُتَعَدِّدة. وَالفُصْحى مُوَحَّدةُ القَواعِدِ، وَهَذا الاتِّساقُ حَصِيلةُ مَخاضٍ امْتَدَّ قُرُوناً، فِيما العامّيّاتُ عَصِيّةٌ عَلى الضَبْطِ، مَيّالةٌ إلى الرُضُوخِ لِلَهجاتِها فَيُكْتَبُ اللفْظُ الواحِدُ مِنْ أَلْفاظِها، مَثَلاً، عَلى أَكْثَرَ مِن نَحْوٍ واحِدٍ وَقَدْ تُعْتَمَدُ في تَصْرِيفِهِ صِيَغٌ يُنْكِرُها مَنْ أَلِفَ أُخْرى، إلخ، إلخ... لا يَحُولُ هَذا كُلُّهُ دُونَ الإِقْرارِ بِعُسْرِ المِحْنةِ التي تَتَعَرَّضُ لَها الفُصْحى مِنْ جَرّاءِ هَذِهِ المُساكَنةِ عَلى الإِنْتِرْنِتِ بَيْنَ المُدَوَّنِ المَرْهوبِ الجانِبَ بِها وَالمُدَوَّنِ الذَرِيعِ العَدْوى بِالعامّيّات. يَزِيدُ مِنْ هَذا العُسْرِ أَنَّ الإِنْتِرْنِتَ تَنْحُو إلى إِسْعافِ العامّيّاتِ إِذْ تُدارِي تَعَدُّدَها المُعْتَبَرَ ضَعْفاً فِي مُنازَلَتِها الفُصْحى بِتَسْهِيلِ ضَرْبٍ مِن "التَعارُفِ" بَيْنَها يُتِيحُهُ عَرْضُ النُصُوصِ المُلْقاةِ بِهَذِهِ مِنْها (كِتابةً أَوْ مُشافَهةً) عَلى جُمْهُورِ تِلْك. وَهَذِهِ سُنّةٌ كانَت السِينَما قَد افْتَتَحَتْها وَتَبِعَتْها الإِذاعةُ المَسْمُوعةُ ثُمَّ المَرْئِيّةُ، وَلَكِنَّ الإِنْتِرْنِتَ، بِما تُتِيحُهُ لِلْمُتَصَفِّحِ مِن سُرْعَةٍ فِي التَجَوُّلِ بَيْنَ مُحْتَوَياتٍ شَتّى، تَتَوَسَّعُ فِي تَفْعِيلِ تِلْكَ السُنّةِ إِذْ تَسْتَكْثِرُ مِنَ المُناسَباتِ وَمِنَ المَساقاتِ التي تُمارَسُ فِيها، فَضْلاً عَن اسْتِكْثارِها مِنَ العامّيّاتِ التِي تُعالَجُ، إلى هَذا الحَدِّ أَوْ ذاكَ، عُزْلَتُها عَن الجَماهِيرِ الناطِقةِ بِعامّيّاتٍ أُخْرى.

إلى ذَلِكَ تَضْرِبُ الإِنْتِرْنِتُ امْتِيازَ الضَبْطِ الذِي ظَلَّتْ تتَعَزَّزُ بِهِ الفُصْحى فِي المُجاذَبةِ المُشارِ إِلَيْها بَيْنَها وَبَيْنَ العامّيّات. وَذَلِكَ بِعَرْضِها كَتِفاً إلى كَتِفٍ نُصُوصاً مَنْسُوبةً إلى الفُصْحى، وَلَكِنَّها مُتَباينةُ الحُظُوظِ مِن الضَبْطِ لِلْغاية. فَيَسَعُ أَقَلَّها أَنْ يُعَدَّ ذُرْوَةً فِي البَلاغةِ وَيَحْفِلُ أَكْثَرُها بِأَخْطاءٍ مِنْ شَتّى الأَصْنافِ وَبِمَظاهِرِ تَهالُكٍ فاغِرةٍ عَلى غَيْرِ صَعِيد. يُكْتَبُ هَذا وَذاكَ وَيُنْشَرانُ عَلى ما يَبْدُو أَنَّهُ قَدَمُ مُساواة. فَلا يَكادُ يَتَصَدّى لِلتَصْوِيبِ أَحَدٌ وَلا يُرى الخَلَلُ في النَصِّ، أَيّاً يَكُنْ نَوْعُهُ وَمِقْدارُهُ، عَلى أَنَّهُ مانِعٌ مِنْ نَشْرِه. وَهوَ ما لَمْ يَكُنْ دَأْباً لِلنَشْرِ قَبْلَ عَهْدِ الإِنْتِرْنِتّ. تُوجَدُ – لا رَيْبَ – مَقايِيسُ لِلنَشْرِ، بَعْضُها لُغَويٌّ، تفْرِضُها عَلى نَفْسِها، فِي الإِنْتِرْنِتِّ، مَواقِعُ مَعْلُومةٌ مَوْصُوفةٌ بِالتَطَلُّب.

---

[12] تَناوَلْنا هَذِهِ الظاهِرةَ بِشَيْءٍ مِن التَفْصِيل فِي: "مِنَ 'الناطِقِينَ بِالضادِ' إلى 'الكِرامِ الكاتِبِين': تَأَمُّلاتٌ فِي جَلاءِ الفُصْحى عَنْ مَناطِقِ المُشافَهة"، فِي: بَيْضُون، أَحْمَد، *مَعانِي المَبانِي: فِي أَحْوالِ اللُغةِ وَأَعْمالِ المُثَقَّفِين*، دارُ النَهارِ لِلنَشْر، بَيْرُوت، 2006، ص. 19-41.

وَلَكِنَّ النَشْرَ فِي الفَضاءِ الافْتِراضِيِّ المُشْرَعِ (بَل اقْتِناءَ ما يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ صَحِيفةً شَخْصِيّةً أَوْ دارَ نَشْرٍ خاصّةً) أمْرٌ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ فِي مُتَناوَلِ أَيِّ كان...

***بَصِيصٌ قَدْ يَنْمو بِحُسْنِ السِياسة...***

عَلى أنَّ مَيْدانَ الإنْتِرْنِتِّ العَرَبِيّةِ الشاسِعَ هَذا، بِما يَتَلاطَمُ فِيهِ مِنْ تَيّاراتِ التَحَلُّلِ اللُغَوِيِّ وَيَتَحَكَّمُ فِيهِ مِن اعْتِيادٍ لِلتَقافُزِ بَيْنَ العامِّيِّ وَالفَصِيحِ وَمِنْ عُزوفٍ عَنْ طَلَبِ القاعِدةِ الواحِدةِ لِلْحالةِ الواحِدةِ، وَهَذا مِنْ غَيْرِ اكْتِراثٍ ظاهِرٍ بِما يُشاعُ فِي الكَلامِ مِنْ خَلْطٍ وَاضْطِرابٍ، يَعْرِضُ، فِي مَساقِ نَوْعٍ مِن الدِينامِيّةِ الجَدَلِيّةِ، وَجْهاً مُخالِفاً لِهَذا كُلِّهِ. فَهوَ وَجْهٌ يُوحِي أَنَّ الضارّةَ يَسَعُها أَلّا تَخْلُو مِنْ نَفْع. يُمْكِنُ وَضْعُ ما سَمَّيْناهُ "التَعارُفَ" بَيْنَ العامِّيّاتِ فِي هَذِهِ الخانة. وَتَنْتَسِبُ إلَيْها أَيْضاً مَظاهِرُ تَطْوِيعٍ وَتَهْذِيبٍ لِلْعامِّيّاتِ يُمْلِيها اعْتِمادُها فِي الكِتابةِ، بِما تَقْتَضيهِ هَذِهِ مِنْ ضَوابِطَ، وَالمَيْلُ التِلْقائِيُّ إلى تَكْيِيفِ العِبارةِ بِحَيْثُ تُفْهَمُ فِي ما يَتَعَدّى العَوازِلَ ما بَيْنَ اللَهَجاتِ وَتَوْزِيعَها الجُمْهُورَ المُسْتَهْدَفَ إلى فِئاتٍ وَكُسُورِ فِئات. وَلا تَخْلُو الحالُ المَوْصُوفَةُ نَفْسُها مِنْ أَثَرٍ مُسْتَحَبٍّ فِي الفُصْحى تُيَسِّرُهُ مُخالَطَتُها المُتَكاثِرةُ الوُجوهَ وَالمُناسَباتِ لِلْعامِّيّاتِ وَتَعَرُّضُها المُتَكَرِّرُ لاخْتِبارِ الحِوارِ، بِما تُمْلِيهِ مُزاوَلةُ هَذا الأَخِيرِ مِنْ تَلْيِينٍ وَتَيْسِير. وَذاكَ أَنَّ العامِّيّاتِ، فِيما تَدْخُلُ فِي نِزالٍ مَعَ الفُصْحى تُثْبِتُ فِيهِ تَكَيُّفَها المُتَفَوِّقَ بِضَرُوراتِ المُمارَسةِ الافْتِراضِيّةِ، وَهوَ الوَجْهُ الجَدِيدُ لِسَلاسَةِ خَوْضِها فِي تَفاصِيلِ الحَضارةِ المُعاصِرةِ، تُبْدِي هاهُنا، بِمَزِيدٍ مِن الوُضُوحِ، وَجْهاً أَصِيلاً لَها هُوَ وَجْهُ المَعِينِ أَو التُرْبةِ لِلْفُصْحى وَالمُحَرِّكِ لَها فِي نِضالِها لِلْبَقاءِ وَالتَكَيُّف. هَذا مَعَ العِلْمِ بِأَنَّ ما سَبَقَ بِأَسْرِهِ يَحْتاجُ، فِي كُلِّ حالٍ، إلى مُدّةٍ مَدِيدةٍ مِن الزَمَنِ لِيَتَفَتَّقَ عَنْ تَغْيِيرٍ فِي العَلاقةِ بَيْنَ العامِّيّاتِ المُخْتَلِفةِ وَبَيْنَ هَذِهِ وَالفُصْحى يَسُوغُ ضَبْطُ مَلامِحِهِ باسْمٍ يُجْمِلُها أَوْ بِأَسْماء.

هِيَ إذَن المَسائلُ الكُبْرى نَفْسُها كانَتْ مَطْرُوحةً عَلى العَرَبِيّةِ مِنْ عَهْدِ النَهْضةِ وَتَقَلَّبَتْ حَتّى أَيّامِنا فِي أَطْوارٍ مُخْتَلِفةٍ، نَراها وَجَدتْ فِي الإنْتِرْنِتِّ مَسْرَحاً يُلابِسُ مَساحةَ الكَوْكَبِ لِاسْتِعْراضِ مَفاعِيلِها وَلِلاحْتِدامِ وَمُعاناةِ ضُرُوبٍ مِن التَغْيِيرِ أَشَرْنا إلى أَهَمِّها. هِيَ مَسْأَلةُ العَلاقةِ العَرَبِيّةِ بِحَضارةِ العَصْرِ بِبُعْدِها اللُغَوِيِّ وَمَسْأَلةُ التَضارُبِ المَسْلَكِيِّ بَيْنَ الفُصْحى وَالعامِّيّاتِ فِي سِياسَةِ تِلْكَ العَلاقةِ. وَهَذِهِ سِياسةٌ زادَ العَهْدُ الافْتِراضِيُّ جَلاءً عَلى جَلاءٍ حاجةَ الفُصْحى إلى إعادةِ النَظَرِ فِي ما يَخُصُّها مِنْها: فَتَزِيدُ، بِتَلْيِينِ قَواعِدِها الصَرْفِيّةِ وَبِتَسْهِيلِ شُرُوطِها لاقْتِراضِ أَلْفاظِ الحَضارةِ العَصْرِيّةِ، مِنْ فُرَصِها لِلْبَقاءِ عَلى سَوِيّةِ العَصْرِ نَفْسِهِ وَلُزُومِ سُرْعَتِه. هَذِهِ الحاجةُ نَفْسُها تَطْرَحُ عَلى الفُصْحى، أَيْ عَلى المَعْنِيّينَ بِمَصِيرِها، مَسْأَلةَ الافْتِقارِ إلى "سُلْطةٍ" لُغَوِيّة. وَالسُلْطةُ هَذِهِ مَعْلومٌ أَنَّها لا تَكونُ إلّا " مَجْمَعِيّةً" أَوْ "مَجامِعِيّةً" أَوَّلاً: فَيَتَرافَدُ نَشاطُها وَإنتاجُ الهَيْئاتِ الأُخْرى وَالأَفْرادِ وَتَكونُ حاظِيةً بِما يَفِي بِالغَرَضِ مِنْ ثِقةِ المُحْتاجِينَ إلى المَشُورةِ اللُغَوِيّةِ فِي مُواجَهةِ تَحَدٍّ مُتَجَدِّدٍ واجَهَتْهُ وَتُواجِهُهُ عَلاقةُ العَرَبِيّةِ بِالعالَمِ وَبِالعَصْر.

وَقَدْ يَكُونُ أَبْلَغَ الدُروسِ التي يُمْلِيها عَصْرُ الإنْتِرْنِتِّ هَذا عَلى الناطِقِينَ بِالعَرَبِيّةِ، وَعَلى دارِسِي العَرَبِيّةِ وَالمُعْتَنِينَ بِشُؤُونِها مِنْ بَيْنِهِمْ بِالدَرَجةِ الأُولى، أَنَّ صِيانةَ الفُصْحى، وَهيَ مُهِمّةٌ يَنْبَغِي أَنْ تَبْقى عَلى وَجاهَتِها، لا يَصْلُحُ لَها البَتّةَ أَنْ تَكُونَ عَداءً لِلْعامِّيّاتِ وَسَعْياً إلى نَبْذِها وَاسْتِبْعادِها مِنْ

حَيْثُ راحَتْ تتَرَبَّعُ وَتَسُودُ فِي العَهْدِ الأَخِير. فَما يُثْبِتُهُ مَشْهَدُ الإنْتِرْنِتِ العَرَبِيّةِ أَنَّ العامِّيّاتِ تَفْرِضُ صَلاحَها لِأَغْراضٍ شَتّى اسْتُجِدّتْ لَها وَأَنَّهُ سَيَطَّرِدُ اعْتِمادُها مَراكِبَ لِلْكَلامِ المَكْتُوب. وَهوَ ما يُوجِبُ العِنايةَ بِدَرْسِ العامِّيّاتِ وَاسْتِطْلاعِ قَواعِدِها وَإفْرادِ مَعاجِمَ لَها وَلَحْظِ مُفْرَداتِها فِي مَعاجِمِ العَرَبِيّةِ الكُبْرى، إلخ. وَالمَدْخَلُ إلى هَذا كُلِّهِ أَنْ يُعْتَرَفَ بِأَنَّ العامِّيّاتِ "مُسْتَوَياتِ" مِنْ مُسْتَوَياتِ العَرَبِيّةِ، لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ، وَأَنَّ الفُصْحى وُلِدَتْ مِنْ مَحْكِيّاتٍ قَدِيمةٍ وَصَحِبَتْها عَلى الدَوامِ مَحْكِيّاتٌ مُتَفَرِّقةٌ وَمُتَعاقِبةٌ. وَلا تُنْكَرُ مَظاهِرُ التَنافُسِ وَالنِزاعِ بَيْنَ العامِّيّاتِ وَالفُصْحى وَهيَ مِنْ وُجُوهِ تَفاعُلٍ لا يَفْتُر. عَلى أَنَّ العامِّيّاتِ لَمْ تَكُنْ، بِأَيِّ مَعْنىً، ثَمَراتِ فَسادٍ يَطْرَأُ عَلى الفُصْحى بَلْ كانَ فيها مَوارِدُ لَها وَكانَتْ أَنْجَعَ مَهامِيزِ نُمُوِّها وَتَصَدِّيها لِجَدِيدِ العالَم.

***فِي الدَرْسِ وَالتَدْرِيس***

مِنْ حُسْنِ السِياسةِ، أَخِيراً لا آخِراً، أَنْ يَنْظُرَ أَهْلُ العَرَبِيّةِ فِي ما باتَتْ الإنْتِرْنِتُ تَعْرِضُهُ مِنْ مَوارِدَ لِتَعْلِيمِ الفُصْحى وَتَعَلُّمِها، وَهَذا فِي ما يَتَعَدّى ما سَبَقَ بَيانُهُ مِنْ وُجُوهِ المِحْنةِ التي تَزِيدُ الإنْتِرْنِتُ نَفْسُها مِنْ وَطْأَتِها عَلى الفُصْحى، وَهيَ مِحْنةٌ أَقْدَمُ عَهْداً مِن الإنتِرْنِتِ وَأَبْعَدُ جُذوراً، وَقَدْ ذَكَرْنا ذَلِكَ أَيْضاً. فَإلى ما سَلَفَ بَيانُهُ مِنْ نَفْعٍ يَعُودُ بِهِ عَلى الفُصْحى بَعْضُ ما تَتَفَتَّقُ عَنْهُ هَذِهِ المِحْنةُ مِنْ تَحَدِّياتٍ، تُضافُ إمْكاناتٌ تَزْخَرُ بِها الإنْتِرْنِتُ تَتَعَلَّقُ بِالتَعَلُّمِ وَالتَعْلِيمِ وَتَحْتاجُ إلى التَجَسُّدِ فِي تَدابِيرَ وَمُنْجَزاتٍ لِإصْلاحِ ما لا يَزالُ يُقالُ، مِنْ قَرْنٍ أَوْ يَزِيدُ، أَنَّهُ مُحْتاجٌ إلى إصْلاحٍ فِي الفُصْحى نَفْسِها، كِتابةً وَقَواعِد. وَهوَ الإصْلاحُ الذِي يَبْتَغِي، عَبْرَ النَظَرِ فِي إمْلاءاتِ العَصْرِ، حِفْظَ الفُصْحى وَتَيْسِيرَ تَعَلُّمِها، وَلَعَلَّ هَذَيْنِ، فِي آخِرِ مَطافِهِما، أَمْرٌ واحِد.

وَيَنْتَمِي إلى تَيْسِيرِ القَواعِدِ ما أَشَرْنا إلَيْهِ مِنْ ضَرُورةِ التَوَسُّعِ فِي الأَبْنِيةِ أَو الجَوازاتِ الصَرْفِيّةِ طَلَباً لِتَسْهِيلِ الاقْتِراضِ مِنْ لُغاتٍ تَفْرِضُ أَلْفاظَ الحَضارةِ، عَبْرَ العامِّيّاتِ، بِحُكْمِ الأَسْبَقِيّةِ إلى فَرْضِ أَشْياءِ الحَضارةِ أَو وَقائِعِها. وَهوَ ما خَبِرْنا، فِي حالاتٍ كَثِيرةٍ، قِلّةَ الفائدةِ فِي اسْتِعاضةِ الفُصْحى عَنْهُ بِاقْتِراحِ مُقابِلاتٍ مُسْتَحْدَثة. نَعْلَمُ أَنَّ الاسْتِغْناءَ عَن الوَضْعِ لَيْسَ بِالقاعِدةِ التِي يَجُوزُ إطْلاقُها أَوْ تَعْمِيمُها. وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَيْضاً أَنَّ لِلاسْتِعْمالِ اللُغَوِيِّ قُوّةً مَوْضُوعِيّةً لا تَنْفَعُ مُعانَدَتُها أَوْ هِيَ تُضِرّ.

فِي صَرْفِ الأَفْعالِ وَبِنائِها أَيْضاً، ثَمّةَ ما يَسْتَدْعِي إجالةَ النَظَرِ طَلَباً لِلتَيْسِيرِ أَوْ إعادَتَهُ طَلَباً لِلْإصْلاح. نَخُصُّ بِالذِكْرِ مِنْ ذَلِكَ عَيْنَ الثُلاثِيِّ ماضِياً أَوْ مُضارِعاً. فَهَذِهِ عَصِيّةٌ عَلى الحِفْظِ تَقْتَضِي الرُجُوعَ إلى المَعاجِمِ كَثِيراً حَتّى مِنَ العارِفِينَ بِاللُغة. فَيُسْتَحْسَنُ الإكْبابُ عَلَيْها لِحَصْرِها في فِئاتٍ دَلالِيّةٍ قَلِيلةِ العَدَدِ ما أَمْكَنَ ذَلِك. يُسَهِّلُ ذَلِكَ ما هُوَ سَهْلُ الإدْراكِ مِنْ قَبِيلِ التَمْيِيزِ بَيْنَ اللازِمِ وَالمُتَعَدّي وَما هُوَ أَعْسَرُ إدْراكاً مِنْ قَبِيلِ الاطِّرادِ فِي الدَلالةِ العامّةِ لِبَعْضِ الحالاتِ، وَإنْ يَكُنْ هَذا الاطِّرادُ نِسْبِيّاً، فِي الغالِبِ، وَلَكِنَّهُ حاصِلٌ فَيَتَعَيَّنُ التَوَسُّعُ فِيه. وَقَدْ نَذْهَبُ فِي التَوَسُّعِ نَحْوَ ما جاءَ فِي صِيغَتَيْنِ مُتَشابِهَتَيْنِ شَكْلاً، مُتَباينَتَيْ الدَلالةِ، مِن المَصادِرِ وَالأَسْماءِ مَعَ كَوْنِ المادّةِ واحِدة. فَإنَّ الاخْتِلافَ الصَرْفِيَّ هُنا يَفْرِضُهُ، أَوْ يَفْرِضُ مُعْظَمَهُ، فِي الأَقَلِّ، اخْتِلافٌ دَلالِيٌّ يَحْتَمِلُ التَصْنِيفَ وَالتَقْعِيدَ بِحَيْثُ يَهُونُ الضَبْطُ فِي كُلِّ حالة. إلخ.

هَذا وَما نَراهُ حَسَناً مِن التَوْسِعةِ فِي الصَرْفِ نَسْتَحْسِنُ أَنْ يُقابِلَهُ الاخْتِصارُ فِي النَحْوِ. لا نَذْهَبُ إلى حَدِّ التَوْصِيةِ بِتَسْكِينِ الآخِرِ عِوَضاً عَنْ حَرَكةِ الإعْرابِ، وَهوَ ما بَدا لَنا مِنْ حِوارٍ قَدِيمٍ أَجْرَيْناهُ مَعَ العَلّامةِ المُصْلِحِ عَبْدِ اللهِ العَلايِلِيّ، أَنّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَبْعِدُه! عَلى أَنَّنا نَرى إمْكاناً، عَلى سَبِيلِ المِثالِ، لِلتَقْلِيلِ كَثِيراً مِنْ حالاتِ المَنْعِ مِنَ الصَرْفِ، إنْ لَمْ يَكُنْ لِصَرْفِ النَظَرِ عَنْها بِأَسْرِها. فَإنَّ بَعْضَها (شَأْنَ اسْمِ لا النافِيَةِ لِلْجِنْسِ، أَو أَيْضاً – وَهَذا لا يَدْخُلُ فِيها – شَأنَ الامْتِناعِ عَنْ تَنْوِينِ الاسْمِ المعَرَّفِ بِاللامِ أَوْ بِالإضافةِ مَثَلاً) لا يَخْلُو مِنْ فائدةٍ دَلالِيّةٍ أَوْ نَحْوِيّة. وَلَكِنَّ بَعْضَها الآخَرَ (شَأْنَ بَعْضِ الأَعْلامِ وَوزانَيْ مَفاعِل وَمَفاعِيل، مَثَلاً) يَبْدُو ضَئِيلَ الفائدةِ أَوْ عَدِيمَها. وَفِي المُعالَجةِ كُلِّها، عَلى أَيّةِ حالٍ قَدْرٌ مُسْتَحَبٌّ مِنَ التَسْوِيةِ بَيْنَ النَثْرِ وَالشِعْر! لا يَضِيرُ أَيْضاً حَسْمُ التَرَدُّدِ فِي إعْرابِ الاسْمِ الوارِدِ بَعْدَ المَصْدَرِ أَو اسْمِ الفاعِلِ أَو اسْمِ المَفْعُول: أَهوَ مُضافٌ إلَيْهِ مَجْرُورٌ أَمْ مَفْعُولٌ بِهِ مَنْصُوبٌ: فَهَذا تَرَدُّدٌ أَوْ خَلْطٌ فِي تَشْخِيصِ الحالةِ لا يَنِي يَزْدادُ انْتِشاراً فِي الصَحافةِ العَرَبِيّةِ مُنْذُ حِين... إلخ.

***فِي نِظامِ الكِتابة***

يَبْقى نِظامُ الكِتابة! وَقَوْلُنا فِيها هُوَ القَوْلُ بِضَرُورةِ الضَبْطِ بِالشَكْلِ أَيْ إظْهارِ الصَوائتِ القَصِيرةِ أَو الحَرَكاتِ الثَلاثِ وَمَعَها السُكُونُ وَالمَدّةُ والشَدّةُ. فَفِي هَذا دَحْضٌ لِصِيتِ الصُعُوبةِ الرازِحِ عَلى العَرَبِيّةِ قِراءةً وَكِتابة. وَفِيهِ تَحْوِيلٌ لِكُلِّ نَصٍّ مَضْبُوطٍ إلى نَمُوذَجٍ تُعْرَفُ بِهِ قَواعِدُ الصَرْفِ وَالنَحْوِ وَتَصْحِيحُ الإمْلاء. فَلَيْسَ عَبَثاً أَنَّ العَرَبِيّةَ تُدَرَّسُ لِلْمُبْتَدِئِينَ عَلى نُصُوصٍ مَضْبُوطةٍ بِالشَكْلِ عادةً. وَالحالُ أَنَّ مُتَعاطِي القِراءةِ وَالكِتابةِ العَرَبِيَّتَيْن مُبْتَدِئونَ جَمِيعاً مَهْما تَتَفاوَت الحُظوظُ مِن الخِبْرة! وَأَمّا رَأْسُ ما يَحْبِسُهُم فِي هَذِهِ المَنْزِلةِ فَهوَ غِيابُ الصَوائتِ القَصِيرةِ مِن النُصُوصِ المَطْبُوعة. يَدْحَضُ الضَبْطُ بِالشَكْلِ أَيْضاً دَعْوى الداعِينَ إلى اعْتِمادِ الجَدْوَلِ الهِجائِيّ اللاتِينِيّ مُتَجاوِزِينَ ما تَنْطَوِي عَلَيْهِ دَعْوَتُهُم مِنْ تَفْرِيطٍ جَسِيمٍ بِمِيراثِ العَرَبِيّةِ المَطْبُوعِ بِرُمَّتِهِ، مُنْذِرٍ بِحَجْبِهِ عَنْ سَوادِ الناطِقِينَ بِهَذِهِ اللُغة. إذْ بِماذا يَمْتازُ الجَدْوَلُ اللاتِينِيُّ عَن العَرَبِيّ إنْ لَمْ يَكُنْ بِإظْهارِهِ الصَوائتَ فِي إهابِ أَحْرُفٍ تامّةِ الأَهْلِيّة؟!

وَذاكَ أَنَّ النِظامَ المُتَّبَعَ فِي الطِباعةِ العَرَبِيّةِ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِطَرِيقةِ الاخْتِزالِ المَعْرُوفةِ، يَخْتَصِرُ عَناصِرَ مُمَيِّزةً مِنْ هَيْكَلِ الكَلِمةِ وَبِنْيةِ الجُمْلةِ تارِكاً البَتَّ فِي هُوِيَّتِها عَلى هِمّةِ القارئ! لا يَنْجُو مِنْ هَذا إلّا ما رَحِمَ رَبُّكَ وَفِي صَدارَتِهِ الكُتُبُ المُقَدَّسةُ وَفِي أَسْفَلِ سُلَّمِهِ بَعْضُ كُتُبِ الأَطْفالِ وَمَعَ هَذِهِ وَتِلْكَ قِلّةٌ قَلِيلةٌ مِنْ كُتُبِ التُراثِ عَكَفَ عَلى ضَبْطِ نُصُوصِها مُحَقِّقُونَ مُدَقِّقُون.

لا نَرى، مَعَ ذَلِكَ، فِي نِظامِ الضَبْطِ الشامِلِ خِياراً أَوْحَدَ، وَهَذا مَعَ كَوْنِهِ الأَمْثَلَ، لا رَيْب. فَنَحْنُ نَعْرِفُ، بِالمِراسِ، ما فِي هَذا الأَمْرِ مِنْ مَشَقّةٍ عَلى الكاتِب. نُدْرِكُ أَيْضاً شِدّةَ التَعَلُّقِ مِنْ جانِبِ الناشِرِينَ وَأَهْلِ الصِحافةِ بِما فِي النِظامِ الرائجِ مِنْ سُهُولةٍ وَثِيقةِ الاقْتِرانِ بِالمَصْلَحةِ التِجارِيّةِ، فَيَسْتَحِيلُ تَجاوُزُها بِجَرّةِ قَلَم. لِذا نُحَبِّذُ التَخْيِيرَ بَيْنَ نِظامَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ يُراعى فِي وَضْعِها التَدَرُّجُ مِنْ حَدٍّ أَدْنى هُوَ ما يُسَمّى "الضَبْطَ عِنْدَ احْتِمالِ اللَبْسِ" إلى حَدٍّ أَقْصى هُوَ الضَبْطُ الشامِل. وَلَكِنَّ

هَذِهِ الأَنْظِمةَ مُحتاجةٌ إلى أَنْ تُوضَعَ وَتُقَرّ! فَيَعْرِفَ الكاتِبُ وَالقارئُ عَلامَ يَسَعُ كُلّاً مِنْهُما أَنْ يُعَوّل. يَقْتَضِي ذَلِكَ، مَثَلاً، أَنْ تُحْصَرَ حالاتُ "اللَبْسِ": لَبْسُ ماذا هُوَ؟ وَلَبْسٌ عَلى مَنْ؟ فَاللَبْسُ المُتَداوَلُ، فِي حَدِيثِ اللُغةِ الشائعِ، لَفْظٌ لا يَزالُ مُلْتَبِسَ المَفْهُومِ، إنْ لَمْ يَكُنْ خِلْواً مِنَ المَفْهُومِ أَصْلاً.

وَلنُضِفْ هاهُنا أَنَّ النُصُوصَ المَعْنِيّةَ بِالضَبْطِ المُقْتَرَحِ هِيَ النُصُوصُ المُعَدَّةُ لِلطَبْعِ وَلِلنَشْرِ حَصْراً. فَإنَّ الاخْتِزالَ المُعْتَمَدَ يَبْقى وافِياً بِالغَرَضِ فِي النُصُوصِ التِي يَسْتَبْقِيها كاتِبُها لِنَفْسِهِ أَوْ يَقْصُرُ تَداوُلَها عَلى مَجالِهِ الخاصّ. يَبْقى مُتاحاً إذَنْ لِكاتِبِ الرِسالةِ الشَخْصِيّةِ وَلِقارِئِها، مَثَلاً، أَنْ يُسَكِّنا أَواخِرَ الكَلِمِ كُلَّها، تَفادِياً مِنَ اللَحْنِ، وَأَنْ يَرْتَكِبا الهَفَواتِ المُتَنَوِّعةَ بِالعَشَراتِ، مَعَ ذَلِكَ، وَهُما يُجِيلانِ النَظَرَ فِي النَصِّ المَكْتُوبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْبِسا بِبِنْتِ شَفة. فَإنَّ هَذا ما يَفْعَلُهُ أَيْضاً، فِي ظِلِّ نِظامِ الطِباعةِ العَرَبِيّةِ المُعْتَمَدِ، قارئُ الصَحِيفةِ العَرَبِيّةِ (أَيْ نَحْنُ جَمِيعاً) كُلَّ صَباح! وَهوَ ما لا نَفْعَلُهُ قَطْعاً حِينَ يَكُونُ ما نَقْرَأُهُ صَحِيفةً غَيْرَ عَرَبِيّةٍ لَنا مِن المَعْرِفةِ بِلُغَتِها نَصِيب! فَبِخِلافِ القِراءةِ العَرَبِيّةِ، حِينَ لا يَكُونُ النَصُّ مَضْبُوطاً بِالشَكْلِ، تَقْتَضِي قِراءةُ نَصٍّ مَوْضُوعٍ بِواحِدةٍ مِنَ اللُغاتِ المتفَرِّعةِ عَن اللاتِينِيّةِ، مَثَلاً، مَعْرِفةَ النُطْقِ بِالمَقاطِعِ التي تَتَكَوَّنُ مِنْها الأَلْفاظُ... وَلَكِنْ تَكادُ القِراءةُ الصَحِيحَةُ تَسْتَغْنِي عَنْ أَيِّ فَهْمٍ لِلْمَقْرُوء! [13]

حَقٌّ لِلْعَرَبِيّةِ، فِي هَذا المَعْرِضِ، أَنْ تُعَوِّلَ عَلى وَضْعِ الإنْتِرْنِتِّ في خِدْمَتِها مانِحةً عَناوِينَ الإصْلاحِ اللُغَوِيّ ما لا يَسْتَغْنِي عَنْهُ مَسْعى الإصْلاحِ مِنْ مَدىً زَمَنِيّ. وَالواقِعُ أَنَّ الإنْتِرْنِتَّ مُجَنَّدةٌ مِنَ الآنَ فِي خِدْمةِ العَرَبِيّةِ، لا يَمْنَعُ مِنْ هَذا ما أَسْلَفْناهُ مِنْ حَدِيثِ مِحْنةِ الفُصْحى المُتَمادِية. تَسْتَقْبِلُ رِحابُ الإنْتِرْنِتِّ مَعاجِمَ العَرَبِيّةِ وَمَراجِعَها الأُخْرى، قَدِيمَها وَالحَدِيثَ وَتُيَسِّرُ اسْتِشارَتَها وَالبَحْثَ فِيها أَيَّما تَيْسِير. وَهوَ ما يُمَثِّلُ ضَرُورةً ماسّةً لِلْمِضِيّ قُدُماً فِي السَبِيلِ الذِي يَرْسِمُهُ ما ذَكَرْناهُ مِنْ عَناوِينِ الإصْلاحِ الصَرْفِيّ وَالنَحْوِيّ وَما لَمْ نَذْكُرْه... بَلْ إنَّ الحَوْسَبةَ، فِي ما دُونَ الإنْتِرْنِتِّ، باتَتْ مَرْكَباً لا يُسْتَغْنى عَنْهُ فِي أُمُورٍ مِنْ قَبِيلِ "حَصْرِ الحالاتِ" الذِي اقْتَرَحْناهُ فِي مَعارِضَ عِدّةٍ، صَرْفِيّةٍ أَوْ نَحْوِيّة. وَلَكِنَّ ثَمّةَ ما يَسْتَأْهِلُ وَقْفةً خاصّةً فِي العَلاقةِ ما بَيْنَ الإنْتِرْنِتِّ وَضَبْطِ النُصُوصِ بِالشَكْل. وَذاكَ أَنَّ جُهوداً تُبْذَلُ لِاجْتِراحِ نِظامٍ آلِيٍّ لِهَذا الضَبْط. وَما نَعْرِفُهُ مِنْ هَذِهِ المُحاوَلاتِ فَرْدِيٌّ إجْمالاً، مُسْتَحِقٌّ التَحِيّةَ، وَلَكِنْ لا يَزالُ يَعْتَوِرُهُ، عَلى تَفاوُتٍ بَيْنَ الحالاتِ، خَلَلٌ وَقُصُورٌ كَثِيران: إنْ لِجِهةِ اتِّساعِهِ لِنُصُوصٍ مُخْتَلِفةِ الطَوابِعِ وَالأَحْجامِ أَوْ لِجِهةِ الجَوْدةِ فِي المُعالَجةِ. تَرُدُّنا هَذِهِ الحالُ، عَنْ كَثَبٍ، إلى ما أَشَرْنا إلَيْهِ مِنْ حالِ التَرْجَمةِ الآلِيّة! عَلى أنّها تَرُدُّنا أَيْضاً إلى الأَمَلِ فِي تَحَسُّنٍ يَطَّرِدُ إذا قُيِّضَ لِلجُهودِ الاسْتِمْرارُ حَتّى بُلُوغِ الغايةِ وَحَظِيَتْ بِعِنايةٍ مُؤَسَّسِيّةٍ وَبَذْلٍ مالِيٍّ مُناسِبَيْن.

### *مَرّةً أُخْرى: السُلْطةُ اللُغَوِيّة!*

هَذا كُلُّهُ لا يَسْتَقِيمُ وَلا يُقْلِعُ إلّا بِاسْتِقامةِ ما أَطْلَقْنا عَلَيْهِ اسْمَ "السُلْطةِ اللُغَوِيّة". وَشَرْطُ هَذِهِ الاسْتِقامةِ أَلّا يَكُونَ لِلسُلُطاتِ السِياسِيّةِ أَدْنى تَدَخُّلٍ فِي عَمَلِ هَذِهِ السُلْطةِ تَوَجُّهاً وَتَنْظِيماً وَبَرامِجَ وَتَكْلِيفاتٍ

[13] .را. تَفاصِيلَ أُخْرى مُتَّصِلةً بِهَذِهِ المَسْأَلةِ نَفْسِها في: بَيْضُون، أَحْمَد، *فِي صُحْبةِ العَرَبِيّةِ*، م م أَعْلاهُ في الحاشِية 9، ص 23-26 و 76-78.

وَتَنْفِيذاً. وَلَكِنَّ السِياسةَ مُتَّصِلةٌ بِهَذِهِ السُلْطةِ إمْكانَ نُشُوءٍ وَنِطاقَ فِعْلٍ وَإقْراراً بِالاسْتِقْلالِ وَمَوارِدَ مُتاحة. هَذا وَلا يُفْتَرَضُ أَنْ تُصادِرَ السُلْطةُ اللُغَوِيّةُ جُمْلةَ العَمَلِ اللُغَوِيّ وَلَكِنْ يُفْتَرَضَ أن تُبِيحَ لَها مَكانَتُها المَعْنَوِيّةُ مُمارَسةَ وَظِيفةٍ بِعَيْنِها هِيَ وَظِيفةُ التَكْرِيسِ فِي الحَقْلِ اللُغَوِيّ. وَهذِهِ وَظِيفَةٌ لا تَتَهَيَّأُ بِمُجَرَّدِ الإمْلاءِ أَو الفَتْوى. وَإنَّما تَبْقى مَشْرُوطةً بِقَدْرٍ مِنَ القُبُولِ العامِّ تُيَسِّرُهُ جَوْدةُ العَمَلِ وَاسْتِقْرارُهُ وَتَكَوُّنُ تَقْلِيدٍ يُزَكِّي تَرَقُّبَ حَصائِلِهِ وَالاعْتِرافَ بِه.

هَلْ تَنْهَضُ المَجامِعُ العَرَبِيّةُ، فِي أَيّامِنا، بِالعِبْءِ المُلْقى – مِنْ حَيْثُ المَبْدَأُ – عَلى عاتِقِها؟ لا نَرى ذَلِكَ إذْ لا نَرى لِأَعْمالِها حُضُوراً أَوْ وَقْعاً يُذْكَرُ فِي تَوْجِيهِ الاسْتِعْمالِ وَالذائقةِ اللُغَوِيَّيْنِ وَلا هِيَ تُفْلِحُ فِي تَقْدِيمِ حُلُولٍ تَنْتَشِرُ وَتُعْتَمَدُ لِمُشْكِلاتٍ تُعانِيها اللُغةُ أَوْ فِي الاسْتِجابةِ الناجِعةِ لِحاجاتِها أَوَّلاً بِأَوَّل. وَأَمّا أَسْبابُ ضَعْفِ المَنْظُورِيّةِ وَالوَقْعِ هَذا: مِنْ داخِلِيّةٍ مُتَّصِلةٍ بِتَكْوِينِ هَذِهِ المَجامِعِ وَبِأَنْماطِ عَمَلِها وَالعَلاقاتِ بَيْنَها وَمِنْ خارِجِيّةٍ تَتَجاوَزُ نِطاقَ فِعْلِها وَلَكِنْ تَرْزَحُ عَلَيْهِ، فَهيَ مَوْضُوعٌ قائمٌ بِرَأْسِهِ يُوجِبُ التَصَدِّي لَهُ بَحْثاً وَإعْداداً وَحَدِيثُهُ يَطُول.

وَمَهْما يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَإنَّ مُبْتَغى كَلامِنا هَذا، مِنْ بابِهِ إلى مِحْرابِه، لَيْسَ فَرْضَ شَيْءٍ عَلى أَحَد. وَإنَّما أَبْرَزْنا مُشْكِلاتٍ وَأَشَرْنا إلى وِجْهةٍ أَوْ وِجْهاتٍ وَلَمْ نَقْتَرِحْ حُلُولاً ناجِزة. وَإنَّما ضَرَبْنا أَمْثِلةً وَلَمْ نَحْصُر الحالاتِ أَو المَهَمّات. وَلَمْ يَكُنْ ما عَرَضْناهُ جَدِيداً عَلى إدْراكِ أَهْلِ العَرَبِيّةِ وَتَداوُلِهِم. وإنّما رَمَيْنا إلى المِضِيّ قُدُماً فِي مُناقَشاتٍ ناشِطةٍ وَإلى إثارةِ أُخْرى خامِلة. تِلْكَ حُدُودٌ لَزِمَتْها هَذِهِ المَقالةُ وَهيَ، عَلى نَحْوٍ ما، حُدُودُ كاتِبِها.

*بَلْتِيمُور، تَمُّوز – آب ٢٠٢٣*